روايات مصرية للجيب

سلسلة نوفا للخيال العلمي

١

غزو من عالم آخر

Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

الكون بحر أبدى .. لا نهائى .. تبحر فيه أعداد هائلة من النجوم والكواكب .. بعضها له سرعة الشهب .. والأخرى تتحرك بجلال وخلود ..

وحتى نتمكن من الدخول إلى هذا العالم العلوى غير المنظور ، يجب أن نفتح عقولنا ، حتى تتسع لكل ما لم نكن نصدقه من قبل ..

أعدادها هائلة ، مجموعات خيالية ، ومتنوعة من الأجرام السماوية .. اتساع لا حدود له للدوامة الكونية ..

يجب أن ننسى السرعات والمسافات المألوفة لنا فى حياتنا الأرضية ..

علينا أن نلقى بثوانينا ، سنواتنا وحتى بأعمارنا كلها ، كوحدات لقياس السرعة والزمن ..

يجب أن نفكر بدلالة خمس عشرة ألف مليون عام ، وهو عمر الكون ..

نفكر بمقياس اللانهاية .. كعمق للكون ..

علينا أن نسمح لأفكارنا أن تتعلق بشعاع الشمس الباهر ..

أو بضوء نجم متألق .. يبعد عنا بملايين الملايين من الكيلومترات ..

على أفكارنا أن تمرق بسرعة الضوء الهائلة ..

عليها أن تبحر .. وتسافر .. وتنطلق .. لتصل إلى المدى الذى لم تبلغه العين البشرية من قبل ..

فإذا سمحنا لعقولنا .. لخيالنا .. أن ينطلق بلا حدود ، فإننا عندئذ نبدأ فى تصور لجزء من المشهد المجسم الرائع ، الذى نسميه الكون ..

فمهما ترنمنا بكلمات تعزف على قيثارة الغموض ..

أو دخلنا فى تفسيرات للمجهول .. تتعالى هائمة بين السحب ..

كل هذا يتبدد تحت ضوء الإيمان المنبثق من عظمة وروعة الكون ..

ويخضع العقل الإنسانى للقدرة الإلهية .. كلما تطلع إلى السماء ..

ويستسلم تمامًا فى خشوع وتعبد ، لذلك النظام الرائع ، والتنسيق الإلهى الخالد .. لكل ذرة فى الكون ..

وأيضًا للأسرار التى تهبط إلينا فى تؤدة ..

وحكمة الخالق (سبحانه وتعالى) ..

رءوف وصفى

— ١ —

أخذ الدكتور (مجدى) يغسل يديه ، وينظر بين لحظة وأخرى إلى وجهه الدقيق فى المرآة المعلقة على الحائط بحجرة الكشف ..

ثم ألقى نظرة سريعة على مختبره الصغير ، واتجه بجسمه النحيل الفارع الطول إلى غرفة الانتظار ..

كان المريض الأخير يستلقى فى مقعد مريح ، ونظر إليه الدكتور (مجدى) يفحصه بدقة ، فرأى رجلًا شاحب الوجه ، بعينين أشبه بعينى السمكة ، وجلد ذابل باهت اللون ، ويدين مجمدتين ، وملابس فضفاضة لا تناسبه وكأنه يلبس جوالًا ..

وعلى كل حال ، لم يكن مستريحًا لنظرات الرجل ..

قال الزائر بصوت غريب :

— الدكتور (مجدى فهمى) ؟

كان صوته أشبه بصوت الغرغرة ..

وكلما نطق بكلمة ، أصابت الدكتور (مجدى) قُشَعْرِيرة ، لا يدرى لها سببًا ..

استمر الزائر يتحدَّث ، دون أن ينتظر الرد :

— .. إننا شخص شاحب الوجه ، بعينين أشبه بعينى السمكة ، وجلد ذابل باهت اللون ، ويدين مجمَّدتين ، فملابسنا فضفاضة لا تناسبنا وكأننا نرتدى جوالًا ، وصوتنا أشبه بصوت الغرغرة ، وكلما تحدثنا أصابتك قُشَعْرِيرة .

مال الدكتور (مجدى) إلى الأمام ..

احمر وجهه ، وأخذ يرتعد ، وقبل أن يفتح فمه ..

قال زائره الغريب ، الكلمات نفسها التى كان يفكر فيها :

— يا إلهى ! إنك تقرأ أفكارى .

ظلَّ الدكتور (مجدى) واقفًا ، والعرق يتصبَّب من وجهه ..

وأخذ الزائر يرقبه بنظراته الباردة ، ثم ما لبث أن أمره باقتضاب :

— اجلس .

حاول الدكتور (مجدى) أن يظل واقفًا ، ولكن سرعان ما شعر بالضعف يصيب ركبتيه .. فى حين كرَّر الزائر الأمر :

— اجلس .

جلس فى بطء ، وأخذ يتطلَّع إلى الوجه الشاحب للزائر ، بعينين ملؤهما الرُّعب ..

تمتم فى ضعف :

— من أنت ؟

أتته الإجابة سريعة حاسمة :

— هذا !.

وألقى إليه الزائر بقصاصة من جريدة يومية ..

ومرَّت دقائق ..

أخيرًا .. استطاع الدكتور (مجدى) أن يتحدث بصوت هامس :

— ولكن هذا خبر نشرته الجريدة ، عن جثة سرقت من مشرحة القصر العينى ..

أجاب الزائر بصوته الغريب :

ـــ أصبت .

قال الدكتور (مجدى) فى حيْرة بالغة .

ـــ لا أفهم .

ردَّ الزائر ، وعلى شفتيه الذابلتين شبه ابتسامة :

ـــ هذه هى الجثة .

وأشار إلى نفسه بأصابع مجعَّدة الجلد .

انتصب الدكتور (مجدى) واقفًا ..

قال بصوت مُفْعم بالرُّعب :

ـــ ماذا ؟!

أعاد الزائر ما قاله ببطء شديد :

ـــ هذه هى الجثة .. ألمْ تلاحظ الصورة ؟.

صمت للحظات ، ثم أردف :

ـــ .. انظر إليها ، وقارن الوجه بوجهنا نحن ..

تساءل الدكتور مجدى :

ـــ نحن !.

أغمض الزائر عينيه الرماديتين ، وقال فى همس :

ـــ أجل .. فنحن كثيرون ، وقد استولينا على الجثة ..

قرأ الدكتور (مجدى) ما كتبته الجريدة تحت الصورة :

المرحوم (عزيز حسن) ، الذى اختفت جثته اختفاءً غامضًا الليلة الماضية ، من الثلاجة رقم (٧) بمشرحة القصر العينى .

نظر الدكتور (مجدى) إلى الزائر ، فوجد أن ملامحه تنطبق تمام الانطباق

على الصورة .. بل إن الوجهين كانا متماثلين تمامًا ، حتى لم يبق هناك أدنى شك فى أنهما لشخص واحد ..

حاول الدكتور (مجدى) أن يندفع خارج الباب ..

ولكن الزائر سرعان ما أخرج مسدَّسًا من جيب سترته المترهلة ، وأخذ يلوِّح به أمام الدكتور (مجدى) ..

ثم استطرد قائلًا :

ـــ إننى أتوقَّع أسئلتك .. كلَّا .. ليست هذه حالة من حالات الانتعاش التلقائى لجثة فى حالة تخشب .. فكرة رائعة ، ولكنها لا تفسِّر قراءة الأفكار ..

قال الدكتور (مجدى) فى لهفة :

ـــ إذن ما عسى أن تكون ؟

حالة مصادرة .. فقد استولينا على الجثة ، ويبدو أن هذا العقل فى الحياة كان موهوبًا بروح الدعابة .. والمرح ..

ـــ ومع هذا فإننى أتساءل عن ...

قاطعه الزائر الغريب فى حدَّة :

ـــ صهْ .

وأخذ يلوّح بمسدّسه الضخم :

ـــ سنتحدث نحن .. وعليك فقط أن تنصت ..

تهالك الدكتور (مجدى) فوق أحد المقاعد ..

شعر بأنه يواجه مجنونًا .. بالرغم من قراءة الأفكار .. والصورة التى فى الجريدة .. ..

واستأنف الزائر حديثه :

ـــ ... منذ يومين هبطت سفينة فضاء فوق إحدى هضبات المقطم .. لقد حملتنا من كوكب خارج المنظومة الشمسية .. يطلق عليه (قيجا) .. وكانت السفينة صغيرة جدًا إذا قيست بمقاييسكم .. ونحن أيضا صغار جدًا .. بل نحن لا نرى بالمجهر ..

صمت الكائن للحظات ، ثم أردف قائلا :

ـــ .. أعدادنا لا حصر لها .. ملايين وملايين .. كلا .. لسنا جراثيم ذكية .. إننا أصغر حتى من هذه ، ونحن فى مجموعنا نشبه سائلا لزجا . ولك أن تعتبرنا فيروسات ذكيّة ، بمعنى أننا نسكن ونتحكّم فى أجسام المخلوقات الأخرى ..

قاطعه الدكتور (مجدى) :

ـــ ولكن كيف جئتم إلى كوكب الأرض ؟

ـــ جئنا إلى عالمكم ونحن نحتل جسم حيوان صغير من الثدييات ، وعندما هبطنا وخرجنا من سفينة الفضاء ، طارد كلب مجنون حيواننا وأمسك به ، فاحتللنا جسد الكلب ثم استخدمناه لينقلنا إلى مشرحة القصر العينى ..

كان الدكتور (مجدى) منصتًا تمامًا لما يقوله الزائر الغريب ، حتى أنه لم يفكر لحظة فيما ألمّ بممرضه (عبد القادر) ، الذى ذهب من ساعة ليرسل برقية لأحد أقاربه بمناسبة زفافه .. ولم يعد حتى الآن ..

وفى تلك اللحظات صرَّ الباب صريرًا مفاجئًا ..

وراحت أقدام شخص تدلف فى خفة وهدوء فوق الممر الأسفلتى. صوب باب الفيلّا التى يتخذها الدكتور (مجدى) عيادة له ، فى هذا المكان المنعزل بالقرب من مشرحة القصر العينى ..

استأنف الزائر قوله :

ـــ ... أخذنا هذه الجثة ، وأسلْنا الدم المتجمد ، وحركنا العضلات المتيبّسة ، فأخذت تنعم وتطرى ، حتى أصبحت الجثة قادرة على السير ، ويبدو أن عقل صاحبها كان ذكيًا فى أثناء الحياة ، بل إن ذكرياته فى الموت ظلت مسجلة ..

صمت للحظات ، ثم قال :

ـــ ونحن نستخدم المعلومات التى يخترعها هذا الرجل الميت ، لكى نفكر بالأسلوب الآدمى ، ونتحدث معكم بلغتكم ، وكأنه إنسان آلى ..

كان وقع الأقدام يقترب أكثر .. وأكثر ..

لم يبد على الزائر أنه لاحظ شيئًا ، فقد ظل يُولى وجهه صوب الدكتور (مجدى) ..

واستأنف حديثه قائلا :

ـــ .. ونحت إرشادنا ، سرقت الجثة هذه الملابس ، والسلاح ، وعلّمنا كيف نستخدمه ، وكذلك حدثنا عنك ..

بُوغت الدكتور (مجدى) :

ــ عنّى أنا ؟!

قال الكائن الغريب بلا اكتراث :

ــ أجل .. أجل .. فهو أحد مرضاك ، ولكنك ربما لا تتذكّره ..

مال الدكتور (مجدى) إلى الأمام ، وهو يرتجف ..

قدّر أنه لو قفز على هذا الكائن بحركة مباغتة ، فلن يستطيع أن يقاوم ، ومن ثمّ يجرّده من سلاحه ..

حذّره الزّائر الغريب ، وهو ما يزال يشهر مسدسه فى تحدٍّ :

ــ ليس هذا من الحكمة .. إننا لا نراقب أفكارك فحسب ، ولكننا نتوقّع النتائج أيضًا .

بدأت الأقدام فى الخارج .. ترتقى الدّرج إلى الباب الأمامى للقيلا ..

استطرد الكائن قائلًا ، وهو يحدّق فى الدكتور (مجدى) بعينيه الغريبتين :

ــ .. إن الجسم الميت هو وسيلة للانتقال ليس إلّا .. يجب أن يكون لنا جسم حىّ مجرّد من العلل العضوية ، أو فيه منها القليل .. وكلما ازداد عددنا وجب أن يكون لنا من الأجسام أكثر .. ومن سوء الحظ أن حساسية الأجهزة العصبية ذات اتصال مباشر بذكاء أصحابها .. لذا فإننا لا نستطيع أن نضمن احتلال أجسام الأذكياء الأحياء ، دون أن نصيبهم بالجنون ..

كان منظر رأس الكائن غريبًا ، بتلك الخصلات من الشعر التى تتدلّى على وجه أبيض بالغ الشحوب ، وقد حجب الضوء الضعيف للحجرة الملامح ، إلا أن الدكتور (مجدى) استطاع أن يميّز العينين والأنف والذقن ...

ابتسم الكائن فزاد تجعّد وجهه :

ــ .. إننا لا نستطيع احتلال عقل مختل ، فهو كآلة محطّمة بالنسبة لنا ..

انفتح الباب الأمامى ..

ودخل الممر شخص وأغلق الباب ..

سارت القدمان فوق السجادة ، صَوْب غرفة الانتظار ..

استمر الكائن الغريب فى حديثه :

ــ .. لهذا وجب علينا أن نختار أجسام الأذكياء ، وهم فى غيبوبة تامة تامة أو من غير وعى كامل ، حتى لا يؤثر فيهم نفاذنا إلى أجسامهم ، ويجب أن نكون قد استولينا على الجسم تمامًا عندما يستردُّون وعيهم .

تردّدت القدمان فى الخارج ، ثم توقفتا ..

ــ .. يجب أن يساعدنا شخص قادر على تحذير الأجسام .. بمعنى آخر .. نحن فى حاجة إلى طبيب ..

وانفتح الباب ..

فى تلك اللحظة أشار الكائن بإصبعه المجعّد محذّرًا ..

وقال فى حدّة بالغة :

ــ ستساعدنا ، وسيكون هذا الجسم أول ما نستخدم ..

وأشار إلى الباب ..

كانت الفتاة التى تقف عند عتبة الباب فى عُنفوان شبابها .. سمراء .. ممتلئة ..

ذات شعر أسود فاحم طويل ..

ران السكون للحظات ..

لمعت الفتاة بشدة ، وخفضت بصرها إلى المسدّس الذى تمسك به يد كائن هارب من القبر ..

ارتفعت يدها اليمنى تخفى اللون القرمزى الذى اصطبغت به شفتاها ..

اتسعت عيناها السوداوان من الخوف والرُّعب ..

صاحت بصوت ضعيف ، كأنما تسلم روحها إلى مجهول ..

وعندما تقدم منها الكائن ، أغمضت عينيها ، ووقعت مغشيًّا عليها ..

لحق بها الدكتور (مجدى) .. قبل أن تسقط على الأرض .. وأراح رأسها على السجادة .. وأخذ يربّتُ وجنتيها فى رِفْقٍ ..

قال بقمة انفعاله .. متجاهلًا المسدّس :

ــ أغمى عليها .. قد تكون مريضة ، أو ربما جاءت تستدعينى إلى مريض .. لعلها حالة عاجلة ..

صاح المخلوق الغريب :

ــ كفى ! . إننا نعرف بقراءة أفكارك أن حالة الإغماء مؤقتة ، ومع هذا فسننتهز هذه الفرصة ، ونعمل على تخدير الجسم ، ثم نستولى عليه ..

كان الدكتور (مجدى) يجثُو بجوار الفتاة ..

رفع رأسها ونظر إلى العينين الميتتين ، وقال فى كراهية بالغة :

ــ أيها الشيطان !.

ردَّ المخلوق فى تحدٍّ :

ــ لا داعى لأن تعبّر عن آرائك ! . إما أن تفعل هذا بنفسك ، أو نقوم به نحن بمعاونة معلوماتك ، وجسمك ..

تمهّل الصوت الغريب قليلًا ، ثم أردف قائلًا :

ــ تكفى رصاصة خلال قلبك لكى نستولى على جسمك .. نعالج الجرح ، ثم تصبح ملكنا .. ولكننا نفضّل جسمًا حيًّا على جثة ..

ــ ٢ ــ

حمل الدكتور (مجدى) الفتاة المغشىَّ عليها ، وسار بها من خلال الباب عبْر الممر إلى غرفة العمليات بعيادته ..

راح الكائن الغريب الذى كان يومًا ما جسم (عزيز حسن) يتبعه فى خُطُوات بطيئة ..

وضعها الدكتور (مجدى) فوق مقعد جلدى فى ركن غرفة العمليات ، وأخذ يدلك يديها ومعصميها ، ويربّت وجنتيها مرّة أخرى ..

اختلجت جفونها ، ورمشت بعينيها ..

هرع الدكتور (مجدى) إلى دولاب زجاجى بجانب المقعد .. فتحه بسرعة ، واختار زجاجة من النشادر ..

شعر فجأة بشىء جامد يندس بين كتفيه .. إنه مسدّس الكائن ..

سمع ذلك الصوت انكريه ، وقد ازداد بَحّة :

ــ أنسيت أن عمليات مخك ، كالكتاب المفتوح أمامنا .. إنك تحاول أن تنعش الجسم ، وأن تكسب الوقت ..

واستطرد فى لهجة آمرة :

ــ ضع الجسم على تلك المائدة ، وخدّره ..

وضع الدكتور (مجدى) الفتاة ــ مضطرًّا ــ فوق مائدة العمليات الجراحية .. وأضاء المصباح المبهر .. المعلّق فوقهم مباشرة ..

صاح الكائن الغريب :

ـــ أطفئ هذا المصباح القوى فورًا ، يكفى مصباح الغرفة . وأشعل المدفأة ..

أطاع الدكتور (مجدى) دون أية معارضة ..

ثم توقف فجأة ..

فقد كانت الفتاة تتمتم بكلمات غامضة ، وتحاول أن تجلس ..

هتف الكائن :

ـــ المخدّر .. بسرعة ..

تطلعت الفتاة فى رُعب إلى الوجه البشع الشاحب ..

وصاحت فى توسُّل :

ـــ ماذا فعلت ؟.. أخرجانى من هنا ، أرجوكما ..

امتدت يد مجعّدة لتدفعها ، ولكن الفتاة استلقت مرّة أخرى فوق مائدة العمليات الجراحية .. لتفادى ملامسة تلك اليد البشعة ..

انتهز الدكتور (مجدى) هذه الفرصة ، فمد يده خلف ظهره متحسّسًا الهاتف الموضوع على منضدة صغيرة بجوار الجدار ..

ارتفع المسدّس ، بينما كانت أصابعه لم تزل فى منتصف المسافة ..

بادره المخلوق الغريب :

ـــ إنك تنسى نفسك .. إن الإدراك العقلى ليس مقصورًا على الاتجاه .. إننا نراك حتى لو كانت هاتان العينيان فى مكان آخر .. اربط هذا الجسم ..

لم يملك الدكتور (مجدى) إلا أن يصدع بالأمر ..

ربط الفتاة بإحكام إلى مائدة العمليات الجراحية ..

ثم نظر إليها بشجاعة ، وهمس يقول :

ـــ لا تخافى ..

وارتفعت عيناه إلى الساعة المعلقة على الجدار المقابل .. كانت تشير إلى التاسعة والنصف مساءً ..

عاد الكائن يقول بذلك الصوت الغريب :

ـــ إننا نعلم أنك تنتظر المساعدة من ممرّضك (عبد القادر) ، الذى كان يجب أن يكون هنا منذ ساعة .. فليأت الآن ، إن عندنا ما يكفى لاحتلال جسمين .. والآن ...

أسرع بتخدير الفتاة ..

لم ينبس الدكتور (مجدى) ببنت شفة ..

أحضر زجاجة المخدّر .. وراقبت الفتاة قُدُومه .. وقد اتسعت عيناها رُعبًا ..

وأخذت تنتحب ..

فجأة .. قال الكائن بصوت عميق :

ـــ لقد جاء ..

التفت إليه الدكتور (مجدى) بحقد بالغ :

ـــ من الذى جاء ؟

قال الكائن بسُخرية :

ـــ (عبد القادر) .. إنه فى الخارج ، وعلى وشك اجتياز الباب الأمامى ..

انفتح الباب الأمامى فى تلك اللحظات ، تأييدًا لنبُوءَة الكائن ..

حاولت الفتاة رفع رأسها ، وشىء من الأمل يحدُوها ..

عاد صوت الكائن يغرغر :

افتح فمها بشىء .. فسندخل عن طريق الفم .. واستدع ممرِّضك إلى هنا .. فسنستخدمه أيضًا ..

صاح الدكتور (مجدى) قائلًا :

ـــ عبد القادر .. تعالَ هنا .

لو استطاع أن ينبه (عبد القادر) بطريقة ما ..

لكن الكائن الغريب فاجأة بقوله فى حدَّة :

ـــ لا تحاول هذا ، بل لا تفكر فيه .. فإذا فعلت ، انتهى الأمر بأن نستولى عليكما أنتما الاثنين .

دخل (عبد القادر) الغرفة وهو يدبّ بقدميه ..

كان رجلا ضخمًا عريض الكتفين ، قصير الشعر ، جاحظ العينين ..

توقَّف عندما رأى الفتاة المربوطة فوق مائدة العمليات الجراحية ...

أخذت عيناه الواسعتان اللتان تنمُّان عن الغباء ، تنتقلان من الفتاة إلى الدكتور (مجدى) ، على حين انزوى الكائن الغريب فى ركن الغرفة ..

قال (عبد القادر) موجِّهًا حديثه إلى الدكتور (مجدى) معتذرًا :

ـــ وجدت جميع مكاتب البرقيات مغلقة ، فذهبت إلى المكتب الرئيسى ، انتظرت هناك مدة طويلة ..

قاطعه صوت الكائن :

ـــ لا عليك من هذا ، فقد جئت فى الوقت المناسب تمامًا ..

لأول مرَّة أدرك (عبد القادر) أن هناك شخصًا رابعًا فى الغرفة ..

انتقلت عيناه الشبيهتان بعينى البقرة ، من الجثة الحية والمسدَّس الضخم ، إلى وجه الدكتور (مجدى) النحيل الذى أجهده القلق ..

لم تستغرق النظرة إلا ثوانى قليلة ، وقد أدركت عيناه من رأتا ..

طوح قبضته اليمنى كأنها مطرقة من الصلب بسرعة مذهلة ، فى وجه الكائن القادم من عالم آخر ..

كانت الضربة كافية لأن تُوقع الجثة على الأرض ، فى قوة ارتجت لها الغرفة ..

صرخ الدكتور (مجدى) يقول :

ـــ أسرع بأخذ المسدَّس ..

حاول (عبد القادر) أن يركل المسدَّس .. الذى كان لا يزال فى يد الكائن ..

دوَّت رصاصة أصابت حافة مائدة العمليات ...

مرَّة ثانية ركل (عبد القادر) اليد المجعَّدة فى جُنون ، ولكن جهوده باءت بالفشل ..

انطلقت رصاصة أخرى ، أصابت الدولاب الزجاجى بصوت مُدوٍّ ..

صرخت الفتاة فى رُعب بالغ ..

أخذ الدكتور (مجدى) يضرب الجثة بقدمه فى كل مكان .. على حين وطئ (عبد القادر) بحذائه الضخم ، ذلك المعصم البغيض الذى كان يحمل المسدّس ..

انتزع أخيرًا المسدّس من الأصابع الميتة الباردة .. رفعه وصوّبه نحو الجثة ..

لكن الدكتور (مجدى) صرخ فى وجهه :

ــ لا يمكنك أن تقتله هكذا .. أخرج الفتاة من هنا ، وأسرع بالله عليك .

سلّم (عبد القادر) المسدّس للدكتور (مجدى) ، وأسرع إلى الفتاة ، وفك وثاقها ، ثم رفعها بيديه القويتين ، وخرج بها من الغرفة ..

جلس الكائن مستندًا بظهره إلى الجدار ، وراحت أطرافه تتلوّى وتنشى ..

بلغ الدكتور (مجدى) الباب فى قفزة واحدة ..

وفى يده كانت زجاجة كبيرة بها أثير ، اختطفها من فوق المائدة ..

وقف يرتجف ..

ثم ألقى بالزجاجة فى وسط الغرفة ، باتجاه المدفأة المشتعلة ..

تأججت النيران .. وسرعان ما اندفع لهيبها ، وأخذ يمتد إلى زجاجات الأثير والكحول الموجودة فى الغرفة ..

ــ ٣ ــ

تعلقت الفتاة بقوة بذراع الدكتور (مجدى) ، على حين كانا يقفان بجانب الطريق يراقبان الڤيلّا وهى تحترق ..

أخيرًا .. استطاعت أن تتكلم :

ــ جئت أستدعيك لعيادة أمى المريضة بالقلب ، فقد أصابتها نوبة .. جذب الحريق عددًا من السكان ..

توقفت سيارة جاءت مسرعة ، أطل منها أحد أمناء الشرطة ، وقال :

ــ رأينا اللهب من بعيد ، وقد استدعينا رجال الإطفاء .

قال الدكتور (مجدى) فى همس ، وكأنه يحدّث نفسه :

ــ أعتقد أنهم سيأتون متأخرين ..

سأله أمين الشرطة :

ــ هل الجميع خارج الڤيلا ؟

أومأ الدكتور (مجدى) برأسه .. وراح يرقب تصاعد اللهب ، وهو يأتى على كل ما تحتويه الڤيلّا ..

التفت إلى (عبد القادر) الذى كان يقف مشدوهًا ..

ابتدره قائلا :

(عبد القادر) .. كيف استطعت أن تضرب ذلك الـ .. الرجل دون أن يتوقع ما تنوى ؟. وكيف لم يقتلك مكانك ؟

أجاب (عبد القادر) :

ــ ما أن رأيت أنه يحمل مسدّسًا ويهددك ، ضربته دون أن أفكر .

تمتم الدكتور (مجدى) فى همس :

ـــ دون أن تفكر !!

عضّ على شفته السفلى حتى كاد يدميها ..

وراح يتطلع إلى الحريق الذى يزداد ضراوة وإلى السقف وهو ينهار بشدة ..

وإلى سيل اللهب الذى ينطلق إلى أعلى ..

أخذ يفكّر .. أيمكن أن يكون هذا الحريق قد أنقذ كوكب الأرض من غزو يأتى من عالم آخر ؟!

أفاق من تأمّلاته على صوت سيارة الإطفاء تأتى من بعيد ..

وسمع بعقله ـــ لا بأذنيه ـــ الولولة الخفية لأصوات من عالم غريب .. عالم خارج المنظومة الشمسية ..

راحت تضعف ، وتضعف ، حتى تلاشت تماما ...

* * *

روايات مصرية للجيب

سلسلة نوڤا للخيال العلمى

قلب من الماس

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

عيادة العلاج الإلكترونى ..

اليوم الثالث من شهر أبريل عام ٢١٢٧ .

استمر الكومبيوتر فى الفحص ، وهو يتك كأنه بندول الإيقاع الموسيقى ، وكان المريض يرقد عاريًا فوق الأريكة من الجلد الوثير ، منتظرًا نهاية الفحص .. كانت تمر فوق جسمه مجموعة من الآلات الطبية البلّورية التى تتحرك إلكترونيًا ، مسجلة مجموعة من البيانات المختلفة الألوان فوق عدة شاشات منتشرة فى أنحاء الغرفة .

كانت الأجهزة والمعدات تدار إلكترونيًا ...

أخيرًا .. طرقت أذنى المريض تلك الدقّات الرتيبة التى تعلن انتهاء الفحص .

صدر من الكومبيوتر صوت آلىّ أجش ، وبدت على شاشته الملونة مجموعة من المعلومات مع صورة من داخل جسم المريض :

ــ أرى هنا أن ضغطك أقل من الطبيعى .. وأنك تشكو كسلًا فى القلب .. أضف إلى هذا أن حالتك النفسية أقل مما يجب يا رقم (م ع ٢٠٢٤٣) .. أنت فى حاجة إلى راحة طويلة ، فأين ستذهب لقضاء إجازتك ؟

أجاب المريض فى إرهاق :

ــ لست أدرى .. وبصراحة ، لقد سئمت كل هذه المصايف .. ثم إننى أنجز عملًا هامًا الآن فى محطة المريخ الفضائية .

عاد الكومبيوتر الطبىّ يتحدث بذلك الصوت العميق ، الذى بدا وكأنه يأتى من كل مكان بالغرفة :

ــ يجب أن تسافر إلى مكان آخر ، فالبقاء فى الفضاء مدة طويلة مرهق للأعصاب .. يجب أن تغيّر البيئة والناس والأماكن .. إن قليلًا من الحبّ يساوى الكثير فى حالتك .

أجابه المريض بضعف :

ــ سأفكر فى نصيحتك هذه .. فأنا أحيا بلا غد .. بلا عمق .. بلا هدى .

ردّ الصوت الآلىّ الأجش فى لهجة آمره :

ــ سأكتبها لك باعتبارها دواء ، وعليك الالتزام بها بوصفها أوامر الطبيب ..

ــ ١ ــ

كانت المدينة تمتد أمامه بلا نهاية ، يلفّها ضباب خفيف ، فتبدو كمدينة تحت الماء ، برغم شلالات الضياء التى تنبعث من مكان مجهول ، وترسل أشعتها الملونة متوهجة متألقة ، فتزيد من جمال المبانى الدائرية البلّورية التى تنتشر فى كل مكان .. كانت المدينة غريبة تمامًا عليه ، ومع هذا كان الطريق يبدو مألوفًا لديه ..

كان يحاول فى إجهاد أن يفهم حقيقة ما يدور حوله من أشياء يراها ، ولا يستطيع تفسيرها .. فقد رأى الحياة من حوله مليئة بالغموض والغرابة والضجيج .. وفجأة سمع صوتًا ينادى اسمه ، فأخذ يتلفت حوله مبهورًا من العجب .. من يعرفه فى هذه المدينة الغريبة ؟ ورآها تختفى وراء إحدى

الأشجار الضخمة ، وتشير إليه أن يقترب منها .. كانت الفتاة طويلة هيفاء ، وشعرها بنيٌ ذو لمعان أحمر وعيناها زرقاوان واسعتان ، ترتدى ثوبًا يبرز جمالها :

ـــ اقترب منّى أكثر ..

أخذ يتأمّل وجهها الرائع مليًا .. وانتابه شعور غامض .. طيف أم يقظة مشوبة بغرابة .. كانت مخلوقة رائعة الجمال ، غارقة فى النور ، والبهاء ، والفتنة .

سألها هامسًا :

ـــ من أنت ؟

ابتسمت فى مرح :

ـــ وهل هذا يهم ؟. فقط دعنا نتمتع باللحظات الحاضرة .

غادرا المكان متشابكى الأيدى ، كان يحدّق فيها متشوّقًا لسماع كلامها العذب بقلب واجف .. أخبرته عن كل ما يراه فى هذه المدينة الغريبة .. آلات تنقية الجوّ من التلوّث .. مصنع الطاقة الشمسية الذى يساهم فى إمداد كل بيت بالطاقة اللازمة له .. الكومبيوتر المتكلم الذى يمكن أن يعطى الشخص أى

معلومات فى كل فروع المعرفة .. الصواريخ الصغيرة الطائرة بين الكواكب الصناعية التى تدور حول الأرض ..

تابعا طريقهما نحو جسر بلّورى فى أطراف المدينة ، فوق الأشجار العملاقة على ضفاف النهر .. ما أحلى العزلة وهى بجانبه تتمايل خصلات شعرها الداكن !! وعيناها الزرقاوان تتألّقان كفيروزتين شديدتى الصفاء .. تحدّق فى وجهه وتطيل نظراتها الساحرة .. فقد كانت تناجى نفسه .. فى عذابها .. وتأمّلها ، وتألّقها .. ويترنح الإحساس العذب .. ويتذبذب متحوّلًا إلى شعور جارف .. وتنفجر عاطفة الحب فى أعماقه بكل عنفها

.. همس لها بصوت متهدّج :

ـــ أحبك .

استدارت إليه فى فزع :

ـــ اصمت .. هذه الكلمة ممنوعة هنا ..

وعادت تبتسم فى إشفاق :

ـــ آسفة .. لقد نسيت أنك غريب عن هذه المدينة .. إن الحبّ ممنوع هنا ..

أجاب فى دهشة :

ـــ كيف يمنعون هذا السحر الأكبر الذى لا يقبل التفسير .. سر الحياة الأخيرة ؟!

قالت فى تؤدة :

ـــ هذه المدينة تخضع تمامًا للآلة .. العواطف البشرية كلها ممنوعة ..

فهى دليل الضعف ، ويجب التغلب عليها .. لأنها تقرّب بين البشر . ونحن هنا عبيد للآلات ..

ــ ولكن ...

ولم يستطع أن يكمل ... توقف السؤال عند طرف لسانه .

كانت تتكئ على سور الجسر البلورى ... وهى تشرح لة :

ــ هذه المدينة تحكمها آلة هائلة ... كومبيوتر .. تمتد فروعه إلى كل مكان . تراقب السكان ليل نهار .. وهناك قانون يمنع العواطف البشرية ، خاصة ...

ــ صمتت للحظات .. وقالت هامسة :

ــ خاصة الحب .. وإلا أحيل للشرطة الآلية .

سألها فى دهشة :

ــ ولكن الإنسان لا يشعر بكيانه .. بوجوده .. إلا عندما يتم الإحساس بتبادل الحب .. ذلك الفيض من المشاعر .. هذا التغير الذى تتموّج فيه كل الألوان .. التوهج الذى يضىء الروح .. إنه ..

قاطعته فى توسّل ، وهى تضع يدها فى رقة على فمه :

ــ أرجوك .. إن هذا الكلام يعرضنا للعقاب .. تعال نتحدّث عند شاطئ النهر القريب .. هناك سر أريد إطلاعك عليه ..

ــ ٢ ــ

كان الفجر يبدو كغلالة شفافة تمتد بلا نهاية فوق الموج الشاحب ..

وكانت تتطلع إليه فى ضوء السحر الخافت .. بعينيها الرقراقين الواسعتين .. راحا يتطلعان معًا إلى السماء ، حيث يبرز كل فترة صاروخ يتجه إلى أحد الكواكب الصناعية القريبة ..

كانت تتحدث إليه وفمها يلتصق بأذنه اليمنى ، وفى صوتها بعض المعاناة :

ــ الحب لم يصبح عاطفة ، بل وظيفة عادية .. مفيدة للذهن المتعب .. نافعة للشخصية وتكاملها ، وللتوازن الهرمونى للذكر والأنثى ..

قال هامسًا وهو يوجه جبهته نحو السماء :

ــ يا إلهى .. أكاد لا أصدق !!

أكملت وكأنها لم تسمعه :

ــ .. وفى المركز الإلكترونى للعلاج النفسى ، يستطيعون إنتاج أى عاطفة عن طريق التأثير فى أحد أجزاء المخ ، بوساطة إشعاع الليزر .

اعتدلت فى جلستها ، وقالت فى جدّية ، ولكن ما زال صوتها هامسا متهدّجًا :

ــ وثار البعض ، فلولا الحب ، لما أدركت الإنسانية أنبل معانيها ، ولما عرفت الروح أعماقها ، فكوّنت جمعية سرية تدعو إلى الحب ، وتبقى على العواطف النبيلة ، من أجل مستقبل البشرية ..

اعتدل فى جلسته يستحثها على الحديث ، فابتسمت وهى تضيف :

ــ ..واتخذت لها اسمًا (حتى لا يموت الحب) ، أما شعارها فهذا .

وأشارت إلى سلسلة فضية حول رقبتها ، تنتهى بقلب من الماس . ويمضى الوقت وينطلق صوتها الساحر يهمس له كيف أن البشرية أخذت تعتمد على الآلات المتطوّرة ، حتى أصبحت ضرورة للحياة ، فتحكمت ، وفكرت لنفسها ، ثم صارت هى التى تحكم الإنسان ، فقد كانت تمده بالمعرفة التى تساعده على الحياة ، ونشأت الآلة الإلكترونية الهائلة (المعرفة) ، التى كانت تمتد إلى كل بيت ، إلى كل مكان ، لا يستطيع الإنسان أن يحيا دونها ، دون معلوماتها ..

ـــ خذها منّى هدية .. لتذكرنى .. إنها ...

ولم تتم عبارتها ، فقد امتدت يد معدنية عملاقة ، تختطف منها السلسلة بالقلب الماسى ، وتلقى بها فى غُنف فوق الرمال الخضراء .. نظرا إلى الوراء فى رُعب ، ورأيا المارد المعدنى بردائه الأصفر المخطط باللون الأسود ، أحد أفراد الشرطة الآلية ..

قبل أن تستطيع التحرك ، جذبها الإنسان الآلى إلى أعلى ، وصدر منه إشعاع أحمر خافت ، ارتطم بصاحبها ، فأصابه شلل كامل ، ولكنه كان يسمع ويفكر ويرى ، وهو جامد فى مكانه ، يتكاثف الضباب من حوله ..

كانت تجاهد للخلاص من القبضة الفولاذية ، ولكن دون جدوى .. بدت كغزال رقيق عاجز عن الدفاع عن نفسه ، سقط فى شباك صياد لا يرحم .. صرخت .. مدّت يدها فى توسل .. اتسعت عيناها الزرقاوان فى فزع :

ـــ خذنى معك .. لاتتركنى .. حبيبى خذنى معك .. إنهم لا يرحمون .

لم يستطع التحرك ، فقط اغرورقت عيناه بالدموع ، وهو يشاهدها تبتعد مع العملاق المعدنى ، إلى مصير مجهول .. إنه فراق بلا لقاء ، وطريق بلا عودة ..

كان الظلام يمتد بامتداد الأفق .. يحمل اليأس والحزن .. وعلى البعد تبدو المدينة القاسية .. الآلية .. المحرومة من أنبل ما فى الوجود .. غارقة فى الظلام ، وكأنها سقطت فجأة فى حفرة سوداء .. بلا قرار ..

ـــ ٣ ـــ

استيقظ فجأة .. كان لا يزال فى عيادة العلاج الإلكترونى .. نظر حوله فى ذُهول حتى أتاه صوت الكومبيوتر الطبى :

ـــ هل تشعر بتحسن ؟

كانت معاناته أقوى من قُدرته على الكلام ..

أكمل الصوت الآلى الأجش :

ـــ لقد أرسلناك إلى حلم عاطفى ، بوساطة التأثير بأشعة ليزر فى الجسم الصنوبرى داخل مخك ، لقد استغرق الحلم أربع دقائق وعشرين ثانية .. أعيد السؤال مرّة أخرى .. هل تشعر بتحسن ؟.

تختلج أهدابه ، والدموع لم تزل فى عينيه .. وتجوس نظراته المتلهفة باحثة فى غرفة العلاج الإلكترونى .. عن إنسانة حبيبة ، لها عينان زرقاوان .. فلا يجد إلا الآلات .. الآلات الجامدة .. وشعر نحوها بكراهية لا حد لها ..

ويأتى إلى ذهنه صدى الصوت الحبيب ، صارخا فى فزع :

ــ خذنى معك .. لا تتركنى .

ويتخيَّل اليدين الممتدتين فى توسُّل .. والعينين الرائعتين المحملقتين فى هلع .. ويتعذب أكثر .. إن ما حدث له كان حقيقة .. لا يمكن أن يكون مجرَّد حلم .. من المستحيل أن يكون كل هذا الحب .. رؤيا أو خيالًا .. لقد كانت أمامه .. بكل سحرها .. ورقتها .. وكان شعوره صادقًا .. حقيقيًا ..

أتاه صوت الكومبيوتر الطبى يقطع عليه أفكاره :

ــ يمكنك العودة غدًا إلى عملك .

نهض فى تُؤدَة .. تثاقلت خُطواته وكاد يهوى إلى الأرض .. طاف خياله فى عالم اليأس .. أفكاره غريبة لا موطن لها .. والحزن يتخلل كل خلاياه .. ويسدل ستارًا على كل المرئيات من حوله ..

جلس وحيدًا فى غرفته المظلمة .. يحاول أن يتجاوز الواقع .. إلى الحلم .. إلى حبيبته .. همس باسمها فى شوق بكاها كثيرًا حتى هدَّه التعب ..

خياله يأبى أن يعترف أن ما عاناه كان حُلمًا .. ويتساءل رغمًا عنه .. تُرى ماذا فعل بها الشرطى الآلى ؟.. أيمكن أن يلتقى بها مرَّة أخرى ؟.. لا .. لن ينساها أبدًا حتى لو كانت مجرَّد حُلم .. مجرد خيال ..

نهض فى تثاقل .. وقف فى الشُّرفة المطلة على المدينة البعيدة .. ونظر إلى السماء .. إلى النجوم المتألِّقة التى تبدو كقطع مهشَّمة من الماس .. تتناثر فوق مخمل أسود ..

يتأمَّلها طويلًا .. ويبدو له بينها عينان زرقاوان رائعتان ، تتطلعان إليه فى حُبٍّ ، ويتمنَّى لو تتجمع كل هذه النجوم .. ليتكوَّن منها قلب هائل من الماس .. يملأ الكون كله ..

كانت سفينة الفضاء فضيَّة لامعة ، مصنوعة من سبيكة مصقولة .. وقد سقطت من الفضاء وهى تتألق بلون أزرق باهت ، مع نبضات غير منتظمة ، وتدفق غاضب من اللون البرتقالى ..

توقفت الآلات وسكنت الأصوات الرتيبة ، وخفيت أغنية القوة المترنحة .. ولم يبقَ إلا المعدن الحامد والبلاستيك البارد .. وكانت الممرَّات الداخلية صامتة ، لا تردِّد إلا أصوات أقدام بطيئة .. خافتة .

لمس رائد الفضاء (أحمد شاكر) مفتاحًا بحركة تنمّ عن الضجر ، وشىء من الخوف ، ثم قال بصوت مرتفع :

ــ هل أنت بخير يا لمياء ؟.

أجابته رائدة الفضاء (لمياء مجدى) فى همس :

ــ إننى على قيد الحياة ..

ثم أردفت فى عصبيَّة بالغة :

ــ .. إلى متى ؟. أم لعلك تفكّر فى القيام ببعض الإصلاحات ؟.

التفت إليها (أحمد شاكر) ، وقال بصوت مُفْعَم بالحزن :

ــ أنستطيع هذا ؟. .

أجابته فى سُخرية بالغة على الرغم منها :

ــ بكل تأكيد .. بشرط توافر الوقت ، وورشة كاملة المعدات ، ومصادر لا حدود لها ، ومعلومات فنية دقيقة ، وكمبيوتر ضوئى حديث ..

دمدم (أحمد شاكر) وهو ينظر إلى الأجهزة العاجزة .. كان رجلا طويل القامة نحيفًا متجهما ، وكأن التجهُّم هو تعبيره الطبيعى ..

ــ ولكن لا يتسع لنا من الوقت الكثير .. فلا جدوى من أن نتمنَّى الأشياء الأخرى ..

لقد انتهى كل شىء .

كان وصف الموقف بهذه العبارات غير حقيقى .. فلا يزال عندهما الهواء والماء والطعام والحرارة .. ولكن هذه الأشياء ما كانت لتدوم ، بل هى مؤقتة .. كان من الأفضل أن تتلف الآلات فجأة ، وأن تتحطَّم سفينة الفضاء عند الهبوط .. وهكذا كانت الكارثة تحل بسرعة دون عذاب ..

أما فى هذا الموقف ــ ولأنهما من البشر ــ فقد كان لزامًا عليهما أن يقاتلا حتى النهاية ، بالرغم من أنهما يعلمان أن أى محاولة ستكون عديمة الجدوى .. ولكنه مجرد استمرار محدود للحياة ، وغير محدود لليأس ..

رفع (أحمد شاكر) بصره عن شاشة الكمبيوتر ، فرأى تجهُّم ويأس (لمياء) .. فحاول أن يكون متفائلًا :

ــ لم نوضع فى قبورنا بعد .. إننا لا نعرف ما إذا كان الأمر ميئوسًا منه ..

نهضت (لمياء) من مقعدها فى حركة واحدة كشفت عن قوتها الجسمية ، وأخذت نفسًا عميقًا ، ثم هزت كتفيها وقالت :

ــ قد تكون على حقّ .. دَعْنا نبحث عن مدى التلف .. قبل أن نقيم مراسم جنازتنا .

كان الحال بالغ السُّوء .. فقد تلفت الآلات بما لا يُرجى لها إصلاح .. وهكذا توقفت الحياة الآلية الرتيبة .. كان عندهما شىء من القوة الاحتياطية

التى يلجآن إليها وقت الطوارئ وهى السبيل لأن يبقيا على قيد الحياة لفترة وجيزة ..

لقد اجتمعا فى غرفة القيادة لسفينة الفضاء ، لا للسهر بجانب جثة ميت . ولكن لإتمام إجراءات تشريح جسده ..

قال (أحمد شاكر) بدهشة بالغة أظهرت مدى قلقه :

ـــ كانت الرحلة مثالية .. لا زيادة فى الحمولة ولا تسرُّب ولا تلف فى الآلات .. وفى لحظات توقف كل شىء .. وباستثناء التخريب أو الانهيار التام للمعادلات الرياضية ، التى جعلت هذه الرحلة ممكنة .. الرحلة التى نبحث فيها عن عالم آخر للإنسان بعد أن أدّى التلوُّث فوق كوكب الأرض إلى صعوبة الحياة ..

توقف قليلًا ليلتقط أنفاسه ، ثم أردف قائلًا :

ـــ ... لا يبقى إلا سبب واحد .. غزو من الخارج .

نظرا إلى الشاشة الكبيرة التى توضح المناظر فوق الكوكب الغامض ، الذى هبطا فوقه بمعجزة .. كان عالمًا غريبًا .. أغرب مما رأى أى واحد منهما .. عالمًا لا تدور فيه شمس ولا قمر .. يسير وحده فى فراغ الفضاء المخيف .. لم يكن ثمّة بحار ولا تلال ولا وديان ولا ثلج أو جليد أو آثار غازات متجمدة .. لا شىء حى يميز سطحه ..

مدت (لمياء) يدها صوب الشاشة الملوّنة .. والكُرة المظلمة للعالم الذى استقرا عليه ، ثم قالت :

ـــ هذا شىء يجب ألا يكون بحسب المنطق .. أى عالم هذا ؟

ردّ (أحمد شاكر) فى همس وهو يتنهد :

ـــ إنه هنا وهذا يكفى .. هل يحتاج الكوكب إلى سبب ليكون حيث هو ؟.

كانت أعصابه متوتّرة ، وقد كره هذه الطريقة الباردة غير الإنسانية فى تشريح المنطق والاحتمال .. إن الإنسان لا يناقش فى هدوء الحوادث التى قد تؤدى إلى موته .. وعندئذ رأى العذاب والدموع فى عينى (لمياء) الزرقاوين .. فبدتا كبحيرتين دقيقتين شديدتى الصفاء .

قال بصوت خالٍ من أيّة نبرة :

ـــ أعتقد أننا يجب ألا نهمل أى احتمال للبقاء على قيد الحياة .. هل نستطيع تركيب جهاز لإرسال إشارة بطلب الإنقاذ ؟.

قالت (لمياء) فى صوت متهدّج :

ـــ إنسان فى وسط المحيط ومعه شمعة ليجتذب بها انتباه صاروخ مار .

ثم أردفت بلهجة جادة :

ـــ هذه المنطقة مجهولة تمامًا .. ومن المؤكد أنها لم تذكر فى الخرائط الفضائية ..

عاد (أحمد شاكر) إلى جهاز الكمبيوتر ، وبعد دقائق قال لزميلته :

ـــ ربما نكون قد اصطدمنا بثقب أسود ، نقلنا إلى مكان آخر من المجرّة ، على بعد آلاف السنين الضوئية ..

ثم أكمل قائلًا :

ـــ سطح هذا الكوكب يكاد أن يتشرَّب الضوء تمامًا .. وربما أنواعًا من الإشعاع ، والكثافة منخفضة جدًا ، إذا كان مكوّنًا من الحجر الصلد .. ولا توجد شمس أو أى نجم قريب وهذا غير معقول .. فالكواكب لا توجد

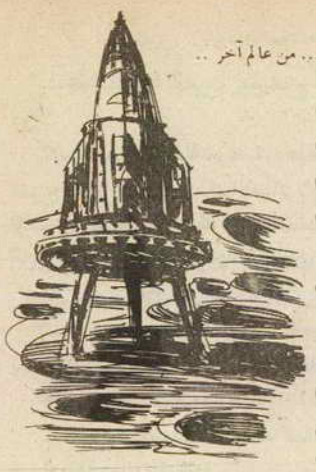

وحدها ، فهى تدور حول أصولها ، حتى تتفتت فى النهاية إلى شظايا .. وسطح الكوكب منتظم جدًا ولا يمكن أن يكون هناك عالم طبيعى بهذه الصفات ..

قالت (لمياء) وهى تجلس فوق مقعد قريب :

ــ إذن ماذا يكون ؟

ــ لقد تحققت من عدم وجود أى مجال كهرومغناطيسى أو أى إشعاع للطاقة معروف لنا .. قد يكون هو السبب فى توقُّف آلاتنا .. أنت من ذُعاة المنطق يا (لمياء) .. ومن أشد المؤيدين له .. فهل عندك الإجابة ؟.

قطّبت رائدة الفضاء (لمياء) حاجبيها الرقيقين ، وقالت :

ــ كائنات تحت سطح الكوكب ، استطاعت بكيفية ما أن تكرهنا على الهبوط ..

قال (أحمد شاكر) بسخرية :

ــ هُراء .. هُراء خيالى بلا معنى ..

ثم سمعا الصوت الغريب .. لم يكن فى حاجة إلى فم ليتكلم .. فما الأفواه إلا وسائل للموجات المتذبذبة .. كما لم يكن فى حاجة إلى جهاز إرسال .. إذ كان مستطيعًا أن يتحكم فى مرور الإلكترونات التى هى جزء من وجوده

المتكامل .. كان كل المطلوب حجابًا حاجزًا يمكن أن يتذبذب إلى مدى مناسب للأذن البشرية .. وقد قام معدن سفينة الفضاء بإذاعة رسالته بصوت عالٍ ..

صاح (أحمد شاكر) فى ذهُول :

ــ هذا شىء لا يصدّقه العقل ..

وقد أصمّه وأذهله وأخافه ما سمع من لحظات ..

راح يحملق فى شاشة الرؤية .. والمنظر الذى وراءها ..

سدت (لمياء) أذنيها بيديها قائلة فى عصبيَّة :

ــ لا أستطيع أن أصدّق هذا ..

لقد تخلّى المنطق الآن عن أسّه ..

استمر الصوت الغريب فى بثّ رسالته :

ــ ... كفّ الزمن أن يكون له معنى .. فالكائنات تمرُق كأنها بعض الشرار العابر ، حتى أصبحت كصفحات كتاب اختلطت أوراقه ، وتأججت شموس وبردت ، ونشأت كواكب ، ثم تحلّلت وأصبحت ترابًا ..

صمت الصوت المعدنى للحظات ، ثم أردف :

ــ .. هذا ليس كوكبًا طبيعيًا كما قد تظنّان .. بل كوكب صناعى ، يقوم على خدمته كمبيوتر ، ومجموعة من الروبوتات ..

قال (أحمد شاكر) فى صوت هامس ، كأنما يتحدّث إلى نفسه :

ــ أيمكن أن يكون هذا ممكنًا ؟.

نظر إلى الدُّخان الذى يتصاعد من قدح القهوة الساخنة التى أعدّتها (لمياء) ، وإلى أجهزة سفينة الفضاء من حوله .. أشياء قديمة مألوفة ، ولكنها فجأة أصبحت تتسم بالغرابة .. وتساءل فى حَيْرة :

— من أين يأتى الصوت الغريب ؟

احتضنت (لمياء) قدح قهوتها كأنها تلتمس العزاء من حرارة السائل .. وهمست بضعف بالغ :

— كوكب صناعى .. مجرَّد آلة .. جهاز هائل قصد به أن يخدم .. ولكنه بكيفية ما فاقد هدفه الأصلى ، وقد أدركه السَّأم ..

تساءل (أحمد شاكر) فى تمهُّل :

— أدركه السَّأم !. أيمكن لآلة أن تشعر بعاطفة ؟.

ردَّت (لمياء) بصوت مُفْعَم بالسخرية :

— هل السَّأم عاطفة ؟.. وإذا كان الأمر كذلك ، أفيجب أن يقتصر الأمر على الجنس البشرى ..

صمتت للحظات ، ثم أردفت :

— .. أتظن أن كل هذا الكَوْن .. بلايين وبلايين من الكواكب والنجوم والمجرَّات .. خلقت كلها فقط من أجل جنس يعيش على ذرَّة رمال ..

وضع (أحمد شاكر) قدح القهوة .. وتساءل كيف أنهما يقومان بالأعمال العادية المألوفة بعد بدء بثّ الرسالة الغريبة .. يصنعان القهوة .. ويتحدَّثان .. ويفعلان الأشياء الصغيرة العادية التى يقوم بها الآدميون دائمًا .. ألكى يثبتا آدميتهما لأنفسهما ؟.

لم يكن واثقًا ..

قال فى حَيْرة بالغة :

— لا أستطيع أن أتخيَّل أى نوع من الحياة يمكن أن تصنع آلة فى مثل حجم

كوكب .. وربما قصد من بنائه أن يكون جهازًا مركزيًّا للمعلومات للسيطرة على كواكب أخرى .. لن نعرف أبدًا ..

ثم استطرد وهو مغرق فى التفكير :

— .. ولكنه عمَّر بعد صانعيه .. لابدَّ أنه صنع للإدلاء بالمعلومات ، ونحن نعرف أنه يستطيع الاتصال بنا ، وهذا معناه ..

قاطعته (لمياء) بشىء من الأمل :

— إذا كانت آلة فيجب أن تطيع .. كل ما علينا هو أن نطلب ..

عاد الصوت الغريب يقول .. بتلك النَّبرة المعدنية المميزة :

— أدعوكما لمقابلتى .. بمقرّى الرئيسى .. لقد جعلت الهواء فى الخارج يصلح لتنفسكما ..

أرشدهما الكمبيوتر إلى بناء شفاف تحت سطح الكوكب الصناعى ، يتكوَّن من ممرَّات طويلة ، تنتهى بحجرة دائرية ضخمة ، تسطع منها الأضواء الخضراء والزرقاء .. وفوق جدرانها المعدنية الستة عدد هائل من البلورات المتألقة ، التى تتخذ أشكالاً مثلثة ومربعة .. وهى موضوعة على هيئة

مجموعات متناسقة فى الطول والحجم .. وتُومض باستمرار .. وكان هناك طنين خافت يأتى من كل مكان .. وكان يحرس المكان عشرون روبوتًا من أشكال مختلفة .. طول كل منها حوالى ثلاثة أمتار .. كتل صمّاء من معدن شديد التألق ..

أخذ صوت الكمبيوتر يتردَّد فى جنبات الحجرة دون أن يُعرف مصدره :

ــ استطعت التحدُّث بلغتكما ، بعد أن استمعت إلى حديثكما بعد هبوط سفينة الفضاء .. إن الرُّوبوتات على استعداد تام لتلبية كل طلباتكما ..

فجأة .. صدرت أصوات رتيبة من الرُّوبوتات ، تعنى الطاعة والولاء الكامل .

همس (أحمد شاكر) :

ــ (لمياء) .. إننا تحت رحمتهم .. علينا أن نستمر فى الحديث ، حتى نعطى أنفسنا المهلة اللازمة لإصلاح سفينة الفضاء ..

كانا يدركان فى هلع معنى الوحدة القاتلة .. فهما الآن الكائنان البشريان الوحيدان فوق هذا الكوكب الصناعى ، فى مواجهة مجموعة من الآلات ذات الذكاء الصناعى ..

كمبيوتر .. وعشرين رُوبُوتًا ..

استطرد الصوت الآلى بصوته العميق الأجش المشُوب بروح الصداقة :

ــ إن الكائنات التى صنعتنا كانت من جنس شبيه بكما ، وقد اجتازت مراحل حضارية مثلما اجتزتم .. ثم بدأت النزاعات والحروب بالأسلحة التقليدية فى أول الأمر .. وتطوَّرت إلى أسلحة نووية .. وتكوَّنت سحابة غطَّت سطح الكوكب ، حجبت ضوء الشمس ، وتلوَّث الهواء الجوى .. وهكذا قضى على هذه الكائنات ، وبقينا وحدنا .. شهود ألم ، وحزن ، ودمار ، وفناء ..

وبرغم الدِّفء الذى يشع من الصوت ، فقد شعر الزائران بلمسة رهبة من الهيبة والخوف .. وتساءلا على الرغم منهما : هل يصدق الكمبيوتر ؟ أم أن الآلات قد ثارت على صانعيها .. واستولت على الكوكب بأنقوة ؟.

بلل رائد الفضاء شفتيه الجافتين بلسانة ، وقال دون وعى :

ــ ماذا تريدون منَّا ؟.

عاد صوت الكمبيوتر الأجش .. يقول بسرعة :

ــ إننا نهب لكما هذا الكوكب الصناعى بكل ما فيه .. على أن تبدآ من جديد .. وتزدهر الحياة فوقه مرَّة ثانية .. ويسود السلام .. إلى الأبد ..

انبعث من الحلق الجاف لـ (أحمد شاكر) صوت اعتصرته الدهشة والعجب والأمل :

ــ إننا موافقان ..

كانت هناك لحظة انتظار .. لحظة شك قاتل مما قد يحدث فى الزمن القادم .. ثم جاءت ومضة زرقاء ، وشعور بالحركة والمعرفة الجامحة ..

سيعيشان ، ويشعران معًا بدفء الأحاسيس الإنسانية ، وستزدهر الحياة فوق هذا الكوكب الصناعى ، وسيسود السلام وربما استطاعا الاتصال بكوكب يومًا ما ..

وستُولد أسطورة جديدة ..

* * *

— ١ —

كانت صرخة رائد الفضاء لا تزال ترن فى القمرة ..

أخذ يحاول فى يأس أن يصل إلى أجهزة القيادة ، دون جدوى ..

انقطعت وسيلة الاتصال بمركز المتابعة فى كوكب الأرض ..

انقلبت سفينة الفضاء فى وضع رأسى فى محاولة للتغلب على شلال الصخور المندفع نحوها ..

تمكّن رائد الفضاء من النهوض بصعوبة وهو يترنّح ، ولمح الصخور ذات اللون الرمادى الكئيب ، وهى تنحدر فى مجموعات تجاهه من مسافة كيلومترات قليلة ..

حتى فى هذه اللحظات التى اعتراه فيها الفزع ، أمكنه أن يدرك وجود أمر غريب حول هذا الحاجز الصخرى المندفع نحو سفينة الفضاء بهذه السرعة الهائلة ..

إن الموت قريب جدًا منه ..

حاول عدّة مرّات أن يعيد الاتصال بمركز المتابعة فوق كوكب الأرض .. صرخ فى جنون .. ثم ألقى بالأجهزة فى عُنف ، فأطاح ببعض المعدات الإلكترونية التى تملأ القمرة ..

لقد كانت هذه أول رحلة إلى كوكب المشترى .. عملاق المنظومة الشمسية .. ومحاولة الاقتراب إلى أقل حدّ ممكن من سطحه .. واكتشاف سرّ البقعة الحمراء الغامضة .. التى حيّرت علماء الفلك ..

ولكن لسبب مجهول دخلت سفينة الفضاء فى متاهة من الصخور الهائلة .. الكويكبات .. المحيط الكوْنى الهائج الذى يتوسط المسافة بين كوكبى المريخ والمشترى ..

إن الجنس البشرى الذى لم يكن له وجود فى الكون إلا على مدى زمنى ضيق .. ساكن الكهف بالأمس القريب .. الذى كان يحلم بالمستحيل .. يغزو النجوم .. قد خلّف الأرض وراءه .. وتطلّع للكون .. اللانهائى ..

الإنسان الذى كان بالأمس عاريًا ، بالغ الضعف إلى حدٍّ يرثى له .. فاقد الأمل فى الدفاع حتى عن نفسه .. غلّف نفسه بالصلب ، واندفع فى سفن فضاء تعمل بالهيدروجين السائل .. وصل بها إلى القمر والمريخ والزهرة ، ثم كان فى طريقه إلى المشترى ..

— ٢ —

أصاب سفينة الفضاء إعصار من الكويكبات الصغيرة ، الموزعة فى شريط كبير حول الشمس .. أقزام سابحة فى فراغ الكوْن ..

شىء ما لطم سفينة الفضاء من كل جانب .. ملايين المطارق الفولاذية ..

ارتفع داخل القمرة المهتزة بعنف .. صفير مدوٍّ .. كان أشد الأصوات التى سمعها رائد الفضاء ، إثارة للفزع والرُّعب ..

انبعثت فجأة شرارات كهربائية بألوان خاطفة ومتعدّدة ، من الأجهزة الإلكترونية الموجودة فى لوحة القيادة ..

وانبثق شفق أحمر قانٍ ..

سحب رائد الفضاء جهاز التنفس بأصابع مرتعدة متيبسة ، من تحت

مقعده ، أحكمه فوق رأسه .. وبمجرد أن انتهى ، حتى اهتزت سفينة الفضاء فى عُنف بالغ ، كاد أن يحطمها ..

شدّ أطرافه استعدادًا للصدمة التى لا مفرّ منها ..

وانفجرت سفينة الفضاء ، وتناثرت شظاياها بسرعة هائلة فى كل اتجاه ووجد رائد الفضاء نفسه كواحدة من تلك الشظايا ، يتجه عائدًا إلى كوكب الأرض ..

وحيدًا ..

— ٣ —

كان يرتدى رداء الفضاء المحكم المقاوم للصدمات المصنوع من البلاستيك المقوّى والمطّاط الفولاذى .. يغلفه فى عالم صغير محدود .. خاص به ..

لا يشعر داخله ببرودة الكوْن التى لا تحتمل ..

اندفع يهبط بسرعة تبلغ آلاف الكيلومترات ..

تطلّع خلفه ليجد بقايا سفينة الفضاء ، قد اختفت وراء غشاوة السحر الرمادية ، وذلك الظلام الكثيف ، الأبدى ..

استمر يهبط بهذه السرعة الهائلة ..

أصابته الصدمة بدُوار كاد أن يفقده عقله ، وظل قلبه المعذب يضرب جنبات صدره فى عُنف ..

ورئتاه تهدّدان بالانهيار فى أيّة لحظة ..

كان عاجزًا عن التفكير ، فقد أذهلته الصدمة وأصابته بشبه فقدان للذاكرة .. ولكنه كان يستطيع أن يتخيّل مكانًا صغيرًا فوق كوكب الأرض ..

مدينة صغيرة .. وطريق ممهّد مُشمس تظلله الأشجار .. ومنزل أبيض من طابقين .. زوجته .. وابنته ..

الحب .. والحنان .. والدفء .. والسعادة ..

أين كل هذه المشاعر الآن ؟

إنه حتى لا يجد مبرّرًا لموته ..

ما أعجب الإنسان .. يقف فوق ذرّة من الرمال .. يتطلع لغزو المحيط الكوْنى اللانهائى .. وينفق البلايين على أبحاث الفضاء .. وهناك من بنى جنسه من يموت ، لأنه لا يجد الطعام ، بل كسرة الخبز ..

كم من ملايين البشر سيسعدون بجزء فقط من الأموال المخصصة لأبحاث الفضاء .. وغزو الكوْن ..

إنها موازنة بين الحياة لملايين البشر ، وبين محاولة غزو كواكب .. ميتة .. ويختار الإنسان ما يرضى غروره .. ورغبته فى التظاهر ..

كان رائد الفضاء يهبط كقطعة من حجر .. فقّاعة بيضاء فى بئر أسود لا قرار له .. وهو مستسلم بلا إرادة .. قدر لا يملك دفعه ..

صرخ بأعلى صوته .. دون جدوى .. بكى رغمًا عنه ..

أخذ يتجه نحو كوكب الأرض .. كسمكة هلامية فضيّة .. فى بحر كثيف الظلمة لا حدود له .. تصارع الموت .. ولكن بلا أمل ..

قال بصوت هامس ، مُفعم باليأس :

ــ وداعًا أيّتها الأرض .. بكل ما تحتويه .. أيها الناس .. إنكم لن تسمعونى .. ولكنى أتحدث إليكم من عمق الكوْن .. وأنا على حافة الموت .. رفقًا بأشقائكم بنى البشر .. كُونوا أكثر رحمة بهم .. وداعًا ..

جاءته فجأة فكرة غريبة ، سيطرت تمامًا على ذهنه ..

عندما سيدخل المجال الجوى لكوكب الأرض .. سيحترق كالشهاب .. لقد رأى خلال حياته القصيرة .. عشرات من الشُهب .. فهل كان يتصوّر أنه سيصبح يومًا ما أحد تلك الشهب ؟

أغمض عينيه فى يأس .. صلّى .. ثم انتظر الموت ..

ــ ٤ ــ

فى نفس تلك اللحظات ..

طفل صغير ضعيف .. كأنه خيال عصىّ .. يقف بجانب أمه الهزيلة .. أمام كوخهما الحقير .. فى هذا الليل الشديد الحرارة .. الرطب ..

رفع إصبعه الدقيق المرتعد للفضاء ، وقال :

ــ انظرى يا أمى .. إنه شهاب ..

كان جسم رائد الفضاء يبدو كشهاب .. يحترق .. يضىء .. يتوهج ..

ابتسمت الأم فى وهن .. لا يخلو من حزن ، وأردفت :

ــ تقول الأساطير بأنك إذا طلبت أمنية .. وأنت تشاهد الشهاب الساقط .. لتحققت ..

قال الابن بلهفة ، بكل الأمل :

ــ أتمنّى .. أن يتوافر لنا الطعام .. كل يوم ..

وانطفأ الشهاب فجأة ..

وبدا الليل أكثر ظُلمة .. ووحشة ..

روايات مصرية للجيب

سلسلة نوڤا للخيال العلمى

الحب الذى أنقذ العالم

الناشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع

ما أغرب أن يعتاد الناس الأمور .. إن كل شىء يبدو مختلفًا الآن حتى أننا لا نستطيع أن نتخيَّل كيف كان العالم قبل وقوع هذه الأحداث .. إننى أذكر اليوم الأول جيدًا الخامس عشر من يوليو سنة ١٩٩٠ .

كنت أنا وزوجتى نقضى شهر العسل فى بقعة هادئة على الساحل الشمالى .. عدنا إلى الفندق فى ذلك اليوم فى حوالى الساعة السادسة بعد غروب الشمس بفترة وجيزة .. وهنا عرفنا أن الدنيا قد رُوِّعت بحدث رهيب فى ذلك الصباح ، فقد ظهرت فى السماء خمس نقط بيضاء ، أخذت تقترب حتى وضحت طبيعتها على بعد حوالى مائة وخمسين كيلومترًا من سطح الأرض .. كانت أطباقًا طائرة عملاقة ، ملساء ، رمادية متألقة ، يبلغ قطر الواحد منها حوالى ثلثمائة متر .. كانت ساكنة معلقة فوق معظم المدن الكبرى فى العالم ، كأنها يد القدر تنتظر أن تنزل الفضاء .. خرج الملايين من سكان المدن الكبرى يتطلعون فى رُعب مروِّع إلى تلك الأطباق الطائرة ، التى طالما شك الناس فى إمكان وجودها .

كان الرعب يمتزج بالدهشة وحُبِّ الاستطلاع ، فى محاولة الإجابة على السؤال الذى أصبح يشغل أذهان الناس أكثر من أى شىء فى هذا العالم : ماذا تريد الأطباق الطائرة من كوكب الأرض ؟.

جفف (فاضل شوقى) مدير الفندق عرقه ، وهو ينهى رواية ما حدث :

ـــ وهكذا تظل الأطباق الطائرة معلقة فى الفضاء .. تهددنا .. ولا نستطيع أن نفعل لها شيئًا .. ربما تحمل مخلوقات من كوكب آخر ، يأتون

لغزو الكرة الأرضية .. من يدرى ؟.. وأغرب ما فى الأمر أننا لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا ضدهم .. فقد حاولت القواعد الأرضية إطلاق صواريخها النووية فى اتجاه الأطباق الطائرة ، ولكنها انفجرت فى الجو قبل أن تصل إلى أهدافها بتأثير أشعة زرقاء غامضة .

قالت زوجتى فى تجهم لمدير الفندق :

ـــ ماذا تظن داخل هذه الأطباق الطائرة ؟

قال فى حماس ، وهو يتهالك فوق مقعد بجانب مكتب الاستعلامات :

ـــ لا شك أنهم من سكان المريخ .. عمالقة .. ذوو بشرات خضراء ، وعيون جاحظة ، وزوائد كثيرة ، و .....

قاطعته بضحكة صدرت بالرغم منِّى ، ولكنها بدت جوفاء بلا معنى ، فى هذا الموقف ..

فجأة .. قالت زوجتى بعصبيَّة :

ـــ لا أستطيع أن أتحمل الجو هنا .. دعنا نسير قليلا على الشاطئ ..

قلت مبتسمًا وأنا أضغط على يدها :

ـــ لقد اخترنا وقتًا مناسبًا للزواج !.

اكتفت بابتسامة شاحبة ولم تجب ، فأضفت لأزيل قلقها :

ـــ دعينا نفكر فى الأطباق الطائرة غدا صباحا .. أما الآن فلنتمتع بالليل الهادئ ..

استمر سيرنا حوالى نصف ساعة مبتعدين عن الفندق ، دون أن نتبادل الكثير من الكلمات ..

فجأة أشارت زوجتى بيدها نحو السماء ، وقالت :

ـ ما هذا الضوء الأزرق ؟ انظر .. إنه يتحرك ..

كان الضوء منخفضًا ويتحرك نحونا بسرعة هائلة من الشمال الغربى ، ثم تحوّل لونه من الأزرق إلى الأبيض المتألق .. وأصبح فوقنا بعد عدة ثوانٍ ، واتضحت لنا معالمه ، طبق طائر صغير ..

لم نستطع التحرُّك فقد أذهلتنا المفاجأة ، ولم أفعل شيئًا سوى أن أحطت زوجتى بيدى اليمنى .. وقلت لها هامسًا وأنا أحاول السيطرة على نبرة صوتى :

ـ مهما حدث .. فأنا أحبك ..

كان السكون مخيّمًا إلا من الصوت الرتيب للأمواج .. أخذ الطبق الطائر الصغير يهبط دون أن يحدث أى صوت ، وبمجرد أن لامس الأرض فى هدوء ، حتى خرج منه سلم معدنى أملس ، امتد من الطبق الطائر حتى حافة الشاطئ ، ثم ظهر كائن .. امرأة رائعة الجمال طويلة القامة .. شعرها أشقر قصير ..

كانت ترتدى رداء فضيًا يتألق عندما ينعكس

عليه ضوء القمر .. تقدمت إلينا وابتسامة فاتنة فوق شفتيها .. كان فى عينيها الزرقاوين الشديدتى الصفاء تعبير غامض تبدو فيه المعرفة والثقة بالنفس ..

وعلى الرغم منى أخذت أفكر فى أنه إذا كان كل الغزاة مثل هذه الفاتنة ، فلن يلاقوا أى مقاومة من سكان كوكب الأرض !.

نظرت إلينا هذه المخلوقة من الفضاء .. وبعد عدة ثوان ذهب عنا أى شعور بالخوف ..

بدأنا ـ ونحن مسلوبا الإرادة ـ نتجه فى خطوات بطيئة خلف المرأة فوق الجسر المعدنى إلى داخل الطبق الطائر .. لمستنا المرأة بيدها اليمنى برقة فوق جبهتينا .. وعندما دخلنا ، وجدنا ما يشبه البهو الضيّق ، ويقف فى نهايته رجل أشقر طويل القامة يرتدى نفس ملابس زميلته ..

كانت له لحية قصيرة وشارب يتصل بها فى خطّين رفيعين .. كان يقف أمام آلات إلكترونية معقّدة تومض وتنطفئ .. استدار إلينا وأخذ يطيل النظر فى اتزان ورزانة ، ثم اقترب منا ولمس جبهتينا بيده اليمنى ..

وهنا أيقنت أن هذه الإشارة معناها التحية لديهم .. وإلى اليسار كانت هناك مجموعة من الشاشات المجسمة التى يظهر عليها مناظر مختلفة من كوكب الأرض ، تتغير باستمرار ، وأعتقد أنها تستخدم فى الرقابة ..

غابت المرأة عدة دقائق ، ثم عادت ومعها أربعة خوذات شفافة ، تظهر داخلها أسلاك ملونة ونقط صغيرة تتألق ، وتنتهى بسماعات صغيرة وزعتها علينا ، وقد كان غريبًا أن وزن خوذتى كان خفيفًا جدًا بالنسبة لحجمها .. وضعتها فوق رأسى فى تردُّد ، واستقرت السماعتان فوق أذنى ، واستدرت إلى زوجتى مبتسمًا لأطمئنها ..

قالت المرأة الشقراء فى صوت رقيق :

— تقوم هذه الخوذات بترجمة أفكارى إلى لغة مفهومة لكم ، ولولاها لما أمكن لنا أن نتفاهم .. فنحن لا نتكلم لغة ، ولكننا نتبادل الأفكار تليباثيًا .. أما سرعة هذه السفينة فهى هائلة ، أسرع من الضوء .. لقد قدمنا من الكوكب الثالث لنجم الشعرى اليمانية .. كانت تجيبه على كل الأسئلة التى تتلاحق فى ذهنى دون أن أتفوه بها ...

قلت لها :

— ولكن ما هو هدفكم .. من غزو كوكب الأرض ؟.

اقتربت المرأة منّى ، وقالت فى هدوء :

— لقد سرى الشّر فى قومك .. لقد اكتشفتم القنبلة النيوترونية المدمّرة فوق كوكب الأرض .. ونخاف أن تنقلو الهلاك إلى الفضاء ، إلى الكواكب الأخرى .. إنكما نموذجان للجنس البشرى ، ونود أن نفحصكما بدقة ونجرى عليكما بعض التجارب لنتعرف الغرائز البشرية ، وهل هى تتجه للشر أو الخير ؟. وبعدها نقرر ما نفعل ..

قالت زوجتى فى اهتمام :

— هل تنوون إعلان الحرب علينا ؟.

قالت المرأة فى دهشة بالغة :

— ولماذا ؟ من السهل أن نجعلكم تعلنون الحرب على أنفسكم ..

استدار الرجل ، وقال للمرأة بلهجة آمرة :

— لقد حصلنا على العينة المطلوبة .. فلنعد إلى سفينة الرئاسة ولكن بأقل سرعة ممكنة لأنهما غير مهيئين للسرعة القصوى ..

حانت منّى التفاتة إلى الشاشات المجسمة .. كنا على ارتفاع ثمانية آلاف كيلومتر فى الفضاء — كما علمت من المرأة — وكان كوكب الأرض مجرد كرة صغيرة يتأرجح لونها بين الأزرق والأخضر ، معلقة فى فضاء حالك السواد وحولها نقط متألقة براقة كالماس ..

فجأة قالت زوجتى وهى تشير إلى إحدى الشاشات المجسمة :

— انظر !.

كانت الشاشة تمثل بطبق طائر هائل ، من عدة طوابق ، علمت أن قطره حوالى نصف كيلومتر ، كان كمدينة تسبح فى الفضاء .. وانسابت سفينتنا بهدوء فى نفق خاص بها فى السفينة الأخرى كالأم .. لا أدرى كم عدد الكائنات التى مررنا بها مئات أو ربما آلاف .. كلهم يشبهون المرأة والرجل اللذان قابلناهما .

اجتزنا ممرات طويلة ذات جدران فضية وأرضية رمادية إسفنجية ، وصعدنا فى درجات متحركة عدة طوابق إلى أعلى ، وتوقفنا بعد فترة طويلة أمام باب مستدير سرعان ما فتح ، واستقبلنا فى الداخل رجل عجوز يرتدى الخوذة ونفس الملابس ، ابتدرنا قائلًا :

— هذا هو المختبر ، نرجو أن تتعاونا معنا .. إننا سنفحص تركيبكما الجسدى والنفسى ، بما فيها الذكريات التى تختزن فى رأسيكما ، والغرائز البشرية التى ولدت معكما ..

رقدنا فوق ما يشبه منضدة العمليات ، ثم سلطوا مجموعة من الأشعة البيضاء فوق أماكن مختلفة من جسمينا ، وعلمنا فيما بعد أنها نوع من أشعة الليزر ، ثم بدأت آلات إليكترونية متعددة مثبتة فى السقف فى الدوران

بشكل سريع جدًا .. حاولت أن أدير رأسى نحو زوجتى لأطمئن عليها ، أو أمد يدى لألمسها ، ولكن دون جدوى ، ثم لم أعد أشعر بشىء ..

أفقت على صوت يطلب منّى الاستيقاظ ، كان يبدو أنه يأتى من كهف عميق ، ثم شعرت بشىء ما يصدر أزيزًا خافتًا يمر فوق رأسى .. فتحت عينى ببطء ، ووجدت نفسى أننى مازلت فوق منضدة العمليات ، وكان الرجل العجوز يطفئ آخر الأشعة الموجهة نحو رأسى ..

وبمجهود كبير استدرت نحو زوجتى ، فوجئت بها تجلس قريبًا منّى والقلق فى عينيها ..

قلت لها بضعف واضح :

ــ هل أنت بخير ؟

فلمست يدى فى حنان ..

نظرت إلى الرجل العجوز ، وقلت :

ــ ما نتيجة الاختبار ؟

قال وهو مقطّب الجبين :

ــ لم تظهر النتائج بعد .. فالعملية معقدة ، وستعلمان بها ، بل سيعلم بها كل الجنس البشرى فى الوقت المناسب .. والآن ستعودان إلى كوكب الأرض ..

عُدنا إلى نفس المكان على الشاطئ حيث وجدونا ، لمستنا المرأة على جبهتينا وعادت إلى الطبق الطائر وهى تبتسم ، ثم سرعان ما ارتفع بسرعة هائلة ليصبح مجرد نقطة من الضوء سرعان ما اختفت تمامًا ..

نظرت إلى ساعتى .. كانت الثانية وعشر دقائق بعد منتصف الليل ..

نظرت إلى زوجتى وهى تتنهد :

ــ هل حدث كل هذا حقيقة ؟

أجبت وأنا أحاول الابتسام :

ــ لا أدرى .. ولكن أظن أنه حقيقة .. إلا إذا كنا قد أصبنا بهذيان مشترك ..

والشىء الغريب أننا لم نكن مرهقين ، بل وكأننا لم نمر فعلًا بهذه التجربة الفريدة فى تاريخ الإنسانية .. عدنا إلى الفندق ، وهناك كانت تنتظرنا مفاجأة أخرى ..

استقبلنا مدير الفندق بابتسامة كبيرة فوق وجهه الممتلئ :

ــ أين كنتما حتى الآن ؟ لقد أتت الأخبار السعيدة منذ أقل من نصف ساعة ..

لقد رحلت الأطباق الطائرة عن المدن الكبرى .. زال الخطر تمامًا عنّا .. العالم كله يحتفل ..

وقفت مع زوجتى فى شرفة حجرتنا بالفندق ، وقد تبدّد من نفسى الشعور المتوتر الذى خلّفته الأحداث الأخيرة ، ومياه البحر ــ من بعيد ــ تهدر فى خفوت رتيب ..

كنّا نتطلع إلى السماء الصافية ، وكأن الهواء ــ بعد رحيل الأطباق الطائرة ــ أصبح أكثر نقاء ..

استدارت زوجتى إلىَّ ، وقالت وهى تبتسم :

ــ ألا تظن أنه من حُسن حظ الجنس البشرى ، أن كائنات الأطباق الطائرة اختارونا كعينة ؟

قلت لها فى دهشة :

ــ لماذا ؟

ــ كانوا يريدون تعرُّف الغرائز البشرية ، حتى يحكموا على سكان كوكب الأرض بالبقاء أو الفناء .. ولأننا فى حالة حب ، فإن غرائزنا يغلب عليها الخير ..

صمت لعدة ثوانٍ ثم قلت هامسًا ، وأنا غارق فى التأمل ، وأحدِّق باتجاه الأفق اللامحدود :

ــ أتعنين أن حبنا .. قد أنقذ العالم !

وفى بطء شديد .. كان الفجر ينساب بجلال عبْر السماء ..

روايات مصرية للجيب

سلسلة نوفا للخيال العلمى

رُعب .. من الفضاء

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

سفينة فضاء تأتى من كوكب خارج المنظومة الشمسية ..

يقودها كائن غريب ، يتكوّن جسمه من كتلة هُلامية رمادية اللون ، تضيء فى خُفوت .. ويتساقط منها سائل أخضر ..

تدخل المجال الجوى لكوكب الأرض .. تقترب من قارة إفريقيا ثم تهبط فى مكان منعزل بالصحراء ، بالقرب من محطة بنزين قديمة على طريق العلمين ــ مرسى مطروح ..

كان هذا الكائن الغامض فى مهمّة للبحث عن الطعام ..

عن البروتوبلازما الحيّة .. فقد أوشكت هذه المادة الغذائية فى كوكبه على النفاد ..

ــ ١ ــ

جلس (صابر) وحيدًا فى غرفته ..

غدًا يوم آخر ، يوم يضيفه إلى أيامه الصامتة ، يلصقه على الجدار الأسود وراء عينيه .. ظل مستسلمًا للإرهاق والضجر ، يضج فى أعماقه إنسان مغمور ..

فى كل مرّة ، كان يبحث عن شيء يؤكد استمراره ..

فى كل مساء ، كان يعود إلى غرفته الضيقة يحس بالانقباض والاختناق ..

فجأة .. تحرّك شيء ما فى ذهنه ..

كانت الساعة السادسة والربع مساء ..

حاول أن ينهض ، أو أن يصرخ ، ولكنه لم يستطع ..

شعر كأن ثعابين حارقة تشق طريقها داخل فمه ، وتقضم بأسنانها المسمومة أنسجة تفكيره ..

كانت الثعابين تتلوّى ، ثم تضيق الخناق فى عُنف ..

أتاه الصوت الهامس كوميض اللهب :

ــ أستطيع أن أقتلك الآن ..

كانت الكلمات تلسع كأنها الحامض ..

توتّرت عضلات وجهه ، ولكنه لم يستطع التحرّك ..

ثم تألّفت كلمات أخرى ، أخذت تحرق وتدفع بصداها داخل عقله :

ــ ... ستأتينى بشيء من الطعام ..

جلس (صابر) جامدًا ، كأنه أصيب بالشلل المفاجئ ..

اضمحلت الغرفة فى نظره .. تلاشي النور والظلام ..

لم يبقَ إلا الرُّعب والفزع ..

لقد عرف الكائن القادم من كوكب آخر ، مختلف المعلومات المختزنة فى ذهن (صابر) ، وأمره بما يجب أن يفعله ، ولم يترك له حيلة فى الأمر ..

أكان أى إنسان آخر يترك نفسه يموت ، إذا تهيّأت له فرصة للحياة ؟

ارتقى (صابر) الدَّرج الخشبىّ على ساقين ضعيفتين ..

كان يرتعد وقد تجهم وجهه ، عالمًا بأنه لن يكون هناك نوم ، ولكنه كان يمضى فى طريقه وحسب ..

ارتمى على فراشه .. خلع حذاءه ، وراح يحملق بعينين خلتا من كل حياة إلى السقف المترب ..

أجل .. لقد وعد أن يفعل ما أمره به الكائن الذى رحل منذ نصف ساعة .. وتركه باقيًا فى مكانه أبكم ، لا يتحرّك ..

وسمع فى عقله الإنذار الأخير :

ــ سأعود بعد يومين ..

كان على (صابر) أن يهيئ له الطعام ..

تلك العملية المثيرة للأعصاب التى لا تنتهى ، وكانت تهدف إلى المحافظة على نفسه من المصير الذى كان ينتظره لو خالف أوامر الكائن الغامض ..

والشىء المرعب حقًا ، أنه كان يعلم أن عليه أن يفعل هذا عدّة مرّات ..

أجل .. إنه سيفعل أى شىء لكى يبعد خطر الموت عنه ..

انطبقت شفتاه ، وأغمضت عيناه ، وجلس يرتعد وهو لا يستطيع السيطرة على نفسه ..

فكرة واحدة تدور فى رأسه ، كدوّامة رهيبة لا ترحم ..

إن الكائن القادم من كوكب آخر ، يتغذى على الأجسام البشرية الحيّة ..

ــ ٢ ــ

أخذت السيارة تبطئ من سيرها دون سبب ظاهر ..

سألت زوجها :

ــ ما الذى حدث ؟.

أجابها زوجها فى حيْرة :

ــ لا أدرى .. ربما زادت حرارة المحرّك ..

ثم توقفت السيارة تمامًا ..

أرسلت (ليلى) نظراتها فى يأس إلى الصحراء المترامية بلا نهاية ، على حين يحاول زوجها (أحمد) جاهدًا أن يدير المحرّك ، ولكن دون جدوى ..

عادت (ليلى) تنظر حواليها ..

أفق يلمع باللهب والرمل والحصى الصغيرة ..

فجأة .. بدت محطة البنزين القديمة على البعد ، كبارقة أمل من السماء ..

أو ربما كسراب ..

دفعا السيارة حتى الطريق الفرعى الذى أنشأه الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، عند الكيلو ٢٥٧ .

أحسا باللهب يحرق جفونهما .. دمعت أعينهما .. سربل العرق المالح وجهيهما ، حتى وصلا ..

* * *

انحنى (صابر) يفحص محرّك السيارة فى تؤدة ، ثم رفع رأسه ، ومسح يديه فى قطعة نسيج أخرجها من جيبه الخلفى ..

نظر إلى (أحمد) ، وقال فى اقتضاب :

ــ المحرّك سليم ، ولكنه ساخن .. هناك ثقب صغير فى الرادياتير ..

سأل (أحمد) فى لهفة :

ــ أيمكننا مواصلة السفر ؟.

انتظر (صابر) لعدّة ثوان قبل أن يجيب فى شرود :

ــ بالطبع .. ولكن ليس قبل نصف ساعة ، حتى أتم لحام الثقب ، ويبرد المحرّك ..

قالت (ليلى) ، والإجهاد يبدو واضحًا فى صوتها :

ــ أليس هناك مكان ننتظر فيه .. بعيدًا عن هذا الجو الخانق ؟

أشار (صابر) بيده اليمنى المتسخة إلى مبنى قديم بالقرب منهم ، وقال :

ــ يمكنكما الانتظار فى هذا المبنى ..

كان المبنى أبيض اللون مهدَّمًا .. الدور الأرضى استخدم كسجن حربى للحلفاء فى أثناء الحرب العالمية الثانية .. أما الدور الأول فيستعمله (صابر) كمسكن خاص ، يبقى فيه وحيدًا ..

* * *

دخلا إلى المبنى هاربين من القيظ ..

نظرا إلى الداخل ، فوجدا زنزانتين .. ولدهشتهما كانت إحداهما تحتوى سجينًا يمسك بالقضبان ، وتتساقط دموعه فى صمت ..

نظرا إليه بعيون لا تصدِّق ..

كانت (ليلى) لا تحسّ قطرات العرق التى أخذت تنساب عبر حاجبيها ، وتنزل على صدغيها ..

استلقى السجين على الأرض ، ثم تمدَّد على بطانية قذرة ، وبدا كأنه ذمية مكسورة ..

كانت عيناه مفتوحتين ولكنه لم يكن يرى شيئًا .. أما يداه المتسختان فتستندان فى إرهاق على طبقة رقيقة من القش ..

تملَّكها الفزع عندما نظر إليهما الرجل بعينين شبه زجاجيتين لا حياة فيهما ..

ارتفع جسم السجين قليلًا ، وتحرَّكت شفتاه الجافتان المتشققتان ، كأنما كان يحاول أن يتكلم ، وانساب من ركن فمه خيط من اللعاب ، ما لبث أن سقط على ذقنه التى سوَّدتها لحيته ..

بدا للحظات أن وجهه المتصبِّب عرقًا والذى تحف به القذارة ، كقناع من التوسُّل العقيم ..

تراجعت (ليلى) عن الزنزانة ، ويدها المرتعدة تضغط على يد زوجها دون وعى ..

تمتمت تقول فى همس :

ــ إن الرجل مجنون ..

ونظرت بخوف إلى الباب ، حيث يوجد فى الخارج صاحب محطة البنزين .. شعر (أحمد) بأنه يعانى كابوسًا غريبًا ، ثم انطبقت شفتاه ، وبدا أن حرارة الجو تحتويه فى طوفانها ..

قالت (ليلى) بسرعة :

ــ هيَّا بنا نرحل من هنا ..

ازداد ضغط يدها على معصمه .. كان الصوت الوحيد هو لهاثها الأجش ، ووقْع حذاءيهما على الأرض الصلبة ..

بدا كأنما الهواء ينبض بالحرارة اللافحة ..

أخذ (أحمد) يستحثها فى لهفة :

ــ أسرعى ..

فجأة .. عندما دارا حول حافة المبنى تراجعا ، وانقبضت عضلاتهما ، وكتمت (ليلى) صرخة أوشكت أن تطلقها فقد وقف (صابر) بينهما وبين سيارتهما وفى يده بندقية مصوَّبة إليهما ..

حاول (أحمد) أن يتكلم ، وحاول أن يكون صوته نبْرة آمرة حازمة ، حتى يؤثر فى الشخص الآخر ، ولكنه جاء على خلاف ذلك ، ضارعًا متوسّلًا :

— ماذا تريد ؟

.. إن معى مبلغًا من المال ، ومستعد أن ...

نظر إليه (صابر) بوجه جامد .. خالٍ من التعبير ..

حرَّك يده الممسكة بالبندقية ..

قال (صابر) فى شراسة :

— عودا إلى السجن .

— ٢ —

— حذار !.

كاد همس (ليلى) المفاجئ أن يجعله يسقط من يده مبرد الأظافر الذى وجده فى حقيبة يد زوجته ، وحاول أن يبرد به القضبان الحديدية ..

أخفى يده بالمبرد خلف ظهره ، ثم تراجع بسرعة إلى داخل الزنزانة المغلقة ..

كانت الشمس قد غربت أو كادت ..

سألت (ليلى) ، وصوتها أجش بسبب الجفاف ، هامس من الخوف :

— هل هو قادم إلى هنا ؟.

أجابها (أحمد) وأنفاسه تتلاحق ، وتضطرب ..

— لست أدرى ..

أقبل (صابر) فى اتجاههما .. حاول (أحمد) أن يزدرد ريقه . ولكن كل ما فيه من رطوبة جف بفعل الحرارة الشديدة ..

سألت (ليلى) فى عصبيّة :

— ما الذى سيفعله ؟.

لقد نسيت التعب البدنى عندما عاد إليها الخوف .. اكتفى (أحمد) بأن هزّ رأسه إنه لا يعرف ، وكان يسأل نفسه هذا السؤال طوال الساعات الطويلة التى مرّت ، بعد أن أغلق الرجل باب الزنزانة عليهما ..

وخلال الدقائق المخيفة الأولى للسجن ، وفى أثناء الوقت الذى وجدت فيه (ليلى) مبرد الأظافر فى حقيبتها ، اتخذ الفزع شكل أمل فى الهروب ..

وطوال هذا الوقت كان السؤال يلح عليه بلا رحمة :

— ماذا يريد الرجل المجنون منهما ؟.

لم يكن (صابر) متوجهًا إلى زنزانتهما ، بل إنه لم ينظر إليهما على الإطلاق ..

أحسا بارتياح جعل أعصابهما المشدودة تسترخى قليلًا ، وبدا أن الرجل يتفادى الاقتراب منهما ، كذلك لم يأبه لما قاله (أحمد) فى استعطاف ورجاء ..

* * *

اختفى الرجل عن نظريهما ، ثم سمعا صوت فتح باب الزنزانة الأخرى التى تحوى السجين .. وعاد (صابر) للظهور ..

حملق كلاهما فى ذلك الرجل النحيف الفاقد الوعى ، الذى كان يجره (صابر) بصعوبة ، وعقباه يرسمان أخاديد ضيقة فى طبقة التراب فوق الأرض الصلبة ..

وبعد عدّة أمتار على مسافة قصيرة من زنزانتهما ، ترك (صابر) الذراعين الفاقدتى الحركة ، فأحدث سقوط الجسم صوتًا مكتومًا ..

أخذ (صابر) ينظر وراءه فى رُعب ..

كانت عيناه تتحركان فى فزع ، وهو ينظر فى جميع الاتجاهات ..

سألت (ليلى) فى صوت هامس .. مرتجف :

ــ عمَّ يبحث ؟ وما الذى يخيفه إلى هذا الحدّ ؟.

أجابها (أحمد) فى ضيق :

ــ كيف لى أن أعرف ؟.

عادت تسأله فى حَيْرة :

ــ هل سيتركه هنا ؟.

امتلأت عيونهما بالخوف ، وهما يراقبان (صابر) يتجه إلى الدور الأول ، حيث يقع مسكنه ..

كان يتحرَّك بخطوات سريعة ، وكأن الشيطان نفسه يطارده ..

سمعا بابًا يغلق فى عنف ، وصوت مزلاج .

ثم شمل السكون كل شىء ..

بكت (ليلى) ، وقالت بصوت مرتعد :

ــ إنى خائفة يا (أحمد) ..

أحاطها زوجها بيده اليسرى .. كان (أحمد) خائفًا أيضًا ، ولكنه

لا يدرى من أى شىء بالتحديد .. ظل يحملق فى جسم السجين الممدَّد على الأرض .. الوجه النحيف الأسمر الشاحب الذى ينظر إلى السماء دون أن يرى ..

ساد السُّكُون ، وأطبق عليهما كضباب كثيف بلا لون ..

كانت أنفاسهما مجهدة ، وشفتاهما ترتعدان ، وعيونهما على الرجل الذى بقى دون حراك ، ينتظر مصيره المجهول ..

* * *

فجأة .. توقفت أنفاسهما ..

ووقفا مكانهما وقد فغرا فميهما ، وهما يشدان آذانهما إلى الصوت الذى لم يسمعاه من قبل ..

تصلَّب جسماهما .. وهما ينصتان فى رُعب ..

شىء ما يزحف على الأرض ..

ويصدر صوتًا غريبًا كالفحيح ..

ــ ما هذا ؟.

كان صوت (ليلى) ينطق برُعب ، لا يمكن التعبير عنه ..

ابتعدت إلى جدار الزنزانة .. تبكى ، ويداها المرتعدتان فوق عينيها ..

كان الظلام قد بدأ يحل ، ولم يكن (أحمد) واثقًا مما رأى .. وقف مكانه ــ كأنما أصابه الشلل ــ فى جوّ الزنزانة الكريه الرائحة ..

أخذ يحملق بوجه شاحب فى الشىء الذى كان يتحرك صَوْب الرجل الراقد على الأرض ..

كتلة هُلامية تضىء فى خُفوت وتزحف فى بطء ، وتصدر صوتًا غريبًا كالفحيح .

لم يكن (أحمد) يريد أن يسمع ذلك الصوت المرعب ، ولم يقبل عقله هذا الذى يراه ..

ظل مخدّرًا .. فاغرًا فاهُ .. صامتًا ..

* * *

اقتربت الكتلة الهلامية من الرجل الذى كان من الضعف ، بحيث لم يستطع المقاومة ..

واحتوته ، ثم غطّت الجسم كله ، وأخذت تنبض بقوة ، ويظهر على سطحها فقاقيع رمادية استمرت لدقائق ..

أخذ السائل الأخضر يزداد انسيابًا من كل أجزائها ، حتى أتت على الرجل تمامًا ..

ولم يعُد له أى أثر ..

* * *

عندما انتهى الأمر ، وعرف (صابر) أن الكائن قد التهم ضحيته ورحل مؤقتًا .. دلف ببطء إلى الحائط ، حيث كتب بخط كبير :

« الأحد ٢٢ أغسطس .. الضحية الثالثة .. سائق لورى .. »

— ٣ —

حرّك شفتيه كأنما يريد الكلام .. ولكن كأنما شفتيه قد صنعتا من حديد ..

لقد ارتختا عاجزتين ، ولم يستطع أن يحركهما ..

كان محتاجًا إلى قوة إرادة لا حدّ لها ، ليتمكّن من رفع جفونه الثقيلة .

اضطرب جو الزنزانة ، وتألّق بأشياء غريبة ..

رمشت عيناه ببطء ، كانت عينين لا تدركان شيئًا .. ارتختا كأنهما زعانف سمكة ميتة ..

تقطّب جبين (أحمد) .. لقد استطاع التفكير أخيرًا .. كان جسمه كالحجر الصلد ، ولكن تحت سطحه الجامد كان عقله يعمل فى بطء .. إنه يتذكر جيّدًا ذلك الحدث الغريب المرعب ، عندما التهم هذا الكائن ، ذلك الرجل النحيف ..

كان يبدو المشهد وكأنه جزء من الجحيم ..

بقى حوالى الساعة وهو فى ذُهول ، وبرغم هذا حاول أن يوقظ (ليلى) من إغمائها ..

وفوجئ بـ (صابر) يلقى له بكسرة من الخبز تحوى قطعة جبن ذات طعم مرّ ..

اقتسمها مع (ليلى) ، فقد كانا جائعين ، ثم سقط وهو شبه فاقد للوعى .. وصار الأمر أكثر بشاعة ..

إنه يعلم ما سيحدث لهما ، ومع هذا يستلقى عاجزا ، وظن أنه ارتعد ولكنه لم يكن واثقا ، ما عسى أن يكون هذا الكائن ؟

لم يكن فى المعرفة شىء يمكن استخلاص نتيجة منها ، أو أساس مقبول يمكن البناء عليه ..

إن ما رآه تلك الليلة كان شيئا يفوق كل خيال ..

أى كابوس هذا ؟.

تحرَّك من مكانه ، وتساءل : ألا تزال (ليلى) نائمة ؟.

تحسَّس المساحة الصغيرة للزنزانة ، فقد كان الظلام كثيفا ، كان تحريك رأسه أشبه بدحرجة حجر كبير ..

أحس بجفاف فى حلقه ، وانساب اللعاب من ركن فمه على غير وعى منه ، ومرَّة أخرى فتح عينيه غُوة بقوة عضلية كبيرة ..

أغمد الفزع أنصال سكاكين فى عقله ..

تلفت من حوله فى جُنون ، ثم صرخ فى فزع ..

فلم تكن (ليلى) داخل الزنزانة ...

— ٤ —

كانت (ليلى) ملقاة على سرير مغطى برداء من الصوف البنى .. رفع (صابر) رأسها بإحدى يديه وأخذ يحس نبضها باليد الأخرى .. ضغط على عروق رسغها دون أن يشعر بالنبض ..

نظر فى هلع إلى شحوب جفنيها المطبقين .. أيمكن أن تكون قد ماتت بفعل الخدر الذى دسّه لها ولزوجها فى قطعة الجبن ؟

إنه يريدها على قيد الحياة ، لينقلها إلى الزنزانة الأخرى ، من أجل الكائن ..

اختلجت جفونها ، ثم فتحت عينيها وجلست وهى تلهث ، حملقت فيه عيناها المتسعتان رعبا ..

تمتم يقول فى همس بصوته الأجش :

— لا تخافى .. لن أوذيك ..

كانت سحابة تنفسه المثقلة برائحة كريهة تنسكب على وجهها ..

ارتدت إلى الخلف متجهمة ، ويداها تتشبثان بقوة بغطاء السرير ..

صرخت فجأة بأعلى صوتها :

— (أحمد) !.

ضحك (صابر) فى سُخرية :

— زوجك .. إن الكائن يلتهمه الآن ..

قلبها يجهش فى كأس من العذاب .. تبدو لها الدنيا لحظة بلا لون ، تمد يدها إلى عنقها كأنما يد قاسية تخنقها بلا رحمة ، ولم تستطع أن تمنع دموعها ..

اقترب منها (صابر) وقال :

— سأنقلك الآن للزنزانة الخالية ..

نظرت فى هلع حولها ، ووجدت إناء للمياه بجانب السرير ، تناولته فى ثوان .. وضربت به الرأس الأصلع المقترب منها ..

ترنَّح (صابر) إلى الخلف ، فقفزت (ليلى) من السرير ، وعالجته

بضربة شديدة أخرى .. تهالك بعدها فوق الأرض ، انحنت فوقه وأخذت تبحث عن حلقة مفاتيح الزنزانة فى جيوبه حتى وجدتها ..

اندفعت خارجة من الغرفة ..

نزلت الدَّرج بسرعة دون وعى ..

فكرة واحدة تملأ عقلها ، ربما استطاعت أن تصل إلى (أحمد) . قبل أن يناله الكائن الرهيب ..

— ٥ —

— (ليلى) !

قفز (أحمد) عبْر أرضية الزنزانة برغم ضعفه البالغ ، وقد ارتسمت على وجهه سِمَات ألم مفاجئ ..

— (أحمد) !.

كان صوتها هامسًا .. ضعيفًا .. يهتز .. ولكنه مُلئ بالفرحة :

— لقد قال لى ..

قاطعها :

— أسرعى يا (ليلى) .. إن الكائن قادم ..

تملّكها شعور بالرُّعب ، وغشيتها موجة من برد يفقد الحس ، واتجهت نظراتها التى أصابها الذُّهول ، عبْر الصحراء التى بدأ يحل عليها الظلام

عاد (أحمد) يقول فى لهفة :

— أسرعى يا (ليلى) .

ارتعدت يداها حتى أنها لم تستطع السيطرة عليهما . على حين كانت تحاول إدخال أحد المفاتيح فى قفل الزنزانة ..

ولكنه كان المفتاح الخطأ ..

عضّت على شفتيها حتى كاد الدم أن ينبثق من شفتها السفلى ، حاولت مع مفتاح آخر دون جدوى .

همست فى يأس :

— لا أستطيع أن أجد ..

فجأة .. اختنق صوتها وتجمّدت أنفاسها ، وفى ثوان شعرت بأطرافها تتخدر كأن سيصيبها الشلل ..

وفى السُّكون .. سمعت صوتًا ضعيفًا لشىء ما يزحف . ويصدر ما يشبه الفحيح ..

إن الكائن قادم ..

قال (أحمد) بسرعة ، وقد سمع الصوت أيضًا :

— (ليلى) تحكمى فى أعصابك .. ما زال أمامنا وقت .. حاولى بمفتاح آخر .. أجل .. أجل .. هكذا تمامًا .. لم يفتح !.. حاولى بمفتاح آخر ..

ظلت معدتها تتقلص ، وبدأ العرق البارد يتجمع على جبهتها ..

انشق جلد الشفة السفلى تحت وطأة أسنانها .. جفلت ، ثم سقطت منها حلقة المفاتيح على الأرض بصوت مكتوم ..

وعبْر الصحراء ، كان صوت الفحيح يزداد اقترابًا ..

بنشيج متقطع ، انحنت (ليلى) وسقطت حلقة المفاتيح بحركة عصبيّة ..

قالت فى هيستريا :

— لا أستطيع يا (أحمد) .. لا أستطيع .. إننى أوشك على الإغماء ..

أمسكت بقضبان الزنزانة حتى لا تسقط على الأرض ..

قال (أحمد) بقمة انفعاله :

ــ اتركينى هنا يا (ليلى) ، واركضى إلى حيث السيارة .. هيَّا اذهبى ..

نظرت إليه وقد شحب وجهها تمامًا :

ــ ماذا تقول ؟.

صاح بها ، وقد ارتفع صوته :

ــ اذهبى أنت .. انجى بنفسك ..

حبست أنفاسها ، وغرست أسنانها مرَّة ثانية فى شقّ شفتها السفلى .. وبقدرة غير عادية ، توقفت يداها عن الارتعاد ..

جرَّبت المفتاح التالى ، بينما كان (أحمد) يراقبها فى لهفة ...

كان يرى على البعد فى الصحراء ، الكائن المضئ فى خُفوت ، وهو ينبض ويقترب من مدخل السجن ..

أخيرًا .. وجدت المفتاح الصحيح ، وانفتح باب الزنزانة ..

ــ لا تنظرى وراءك ..

بمعجزة .. وجدا السيارة خلف محطة البنزين مغطَّاة بقماش مهلهل ..

استخدما المفتاح الاحتياطى الذى تحتفظ به دائمًا (ليلى) فى حقيبتها ..

بعد دقائق ، كانت السيارة تنطلق بهما فى الطريق الرملى بسرعة كبيرة ..

بعيدًا عن هذا الجحيم ..

ــ ٦ ــ

احتدم الغضب فى أنسجة الكائن .. لم يكن هناك طعام من أجله ..

راح ينزلق فى دوائر غاضبًا يبحث ، وخلاياه البصرية تدقق النظر فى المكان من حوله ..

ثم أخذ ينبض فى قوة .. وتتساقط منه بكثرة تلك المادة اللَّزجة الخضراء ..

أخيرًا .. اتجه إلى السُّلَّم حيث حجرة (صابر) ، وصوت فحيحه يصم الآذان ..

اهتزت ذراع (صابر) فى حركة تشنجية ..

جلس فجأة وعيناه الواسعتان تحملقان فى الظلام ..

زرع الألم خطوطًا من الوعى فى عقله ، ثم جاهد حتى استوى على ركبتيه ..

كانت أسنانه تصطك ببعضها ، وسحابة من الألم قد غشيت عينيه ..

والصداع يكاد يحطِّم رأسه ..

وما أن وقف على ساقيه المتعبتين ، حتى سمع صوت الفحيح ، وبلهثة مشوبة بالأنين ، قفز إلى الباب ، ونظر إلى أسفل بئر السُّلَّم المظلم ..

كان الكائن المضيء فى خفوت يتموَّج مرتقيًا الدَّرج ..

تحرك (صابر) داخل الحجرة فى جُنون .. لم يستطع التنفس ، فقد بدا الهواء سائلًا فى رئتيه ، وكاد الخوف أن يفقده الوعى ..

اندفع إلى أحد أركان الحجرة ، وبلغها وأخرج البندقية .. استدار .. على حين كان الكائن الهلامى ينسل بجسمه المتموِّج المتألِّق من خلال الباب ..

دوَّى صدى انفجار الرصاص ، بينما كان (صابر) يفرغ البندقية فى الجسم الزَّخو المندفع نحوه ..

نشر الرصاص أغلفته فى عجز ..

قفز (صابر) إلى الخلف وهو يطلق صرخة رُعب ، وقد طارت البندقية من يده المرتعدة ..

من أحد الصناديق الخشبية .. أطبقت يده على شىء جامد ، وعرف تمامًا ما عساه أن يفعل ..

وعندما شبَّت الكتلة الهلامية المتألقة ، وأرسلت سيولتها نحو جسم (صابر) ..

جذب فتيل القنبلة اليدوية التى وجدها فى الصحراء ضمن مخلفات الحلفاء :

ــ أيها الكائن الغبى .. سأقتلك جزاء ..

الانفجار .. والألم .. انفجرت الأنسجة ..

انشق الغلاف ، وانساب الكائن عبْر الأرضية ، كأنه سيل مذاب قذر من مادة مجهولة بين حطام الغرفة والأثاث والغبار ..

ثم انطفأت عقول الكائن واحدًا واحدًا ، وحرم كل نسيج من حياته ..

ارتعدت البقايا ارتعادًا شديدًا ، وغمر الألم خلايا الكائن وأوصاله الفردية ..

سالت السوائل الحيوية .. والخلايا المضيئة التى تعطى الدفء والحياة للمادة النابضة ..

وخمدت الحركة فى الكائن تمامًا ..

* * *

استمرت الحرب العالمية الثالثة أربع ساعات فقط ، استخدمت فيها أفتك الأسلحة التى اخترعها الإنسان فى القرن العشرين .. النووية والجرثومية والبيولوجية ..

عمّ الدمار الشامل أنحاء العالم ، وبقى بضع مئات من البشر على قيد الحياة ، يعانون الإشعاعات ، وآثار قنابل الميكروبات ، ومن بقايا حقد الإنسان ..

الإنسان زهرة الخليقة وأنبل ما تراه العين فيها .. كان يموت مختنقًا فى أرديته التى نسجها بيديه .. حقًا بدأ الرّداء فى بادئ الأمر أبيض علويًا مُوشّى بألوان الثقافة عندما كان يعيش بالجوهر ، بالرُّوح ، بالمحبة .. وما أن بدأ الحقد ، والشر ، حتى غربت شمس المدنية ، وتحوّل الرّداء للون الأسود ..

كان الدكتور (م) أحد القلائل الذين عاشوا ما بعد حرب الأربع ساعات ، برغم أن زوجته وولديه ومدينته ، لم يكونوا فى مثل حظّه .. لقد استطاع النجاة لأنه كان فى وزارة الدفاع يعرض رسومات آلة اخترعها على المسئولين .. وبمجرد حدوث الغارة الأولى ، هرعوا إلى المخبأ الخاص الذى صمم للحماية من مثل هذه الهجمات المفاجئة ..

عاد الدكتور (م) إلى مدينته حالما خفت حدّة الإشعاع . فلم يكن له مكان آخر يذهب إليه ، سوى أطلال بيته ..

كان يأكل ويشرب بقايا الأطعمة المحفوظة التى استطاع الحصول عليها ، بعد قتال مع مجموعة أخرى من الأحياء ..

استطاع إشعال النار فى كُومة من الخشب ليقى نفسه برودة الجو ، أما تسليته الوحيدة فكانت تلك الفئران البشعة الوردية المجرّدة من الشعر ، والتى كانت تأكل من بقايا طعامه ..

حقًا لقد كانت تؤنسه بعض الشىء .. ولكن يبدو أن التشويه الذى جرّدها من الشّعر قد فتح شهيتها فى الوقت نفسه لأكل اللحوم ، وبعد ذلك الصباح الذى استيقظ فيه ليجد آثار أسنان صغيرة فى ساقه ، اضطر لأن يعدمها .. وذات يوم عندما كان يتقدم ببطء ليشعل مصباحًا .. توقف .. لقد نسى أمرًا غاية فى الأهمية ، الآلة ، والمولّد ، الراقدين فى القبو الداخلى ..

أخذ يتحسّس طريقه فى الظلام ، وعلى ضوء شمعة أخذ يزيح التراب عن المولّد ، الذى كان جامدًا من عدم الاستعمال ، ولكن ما أن بدأ حتى استمر فى العمل ..

الدكتور (م) أستاذ الفيزياء والفلك بإحدى أكبر جامعات العالم ، يعيش بثياب مهلهلة .. لا تكاد تقى جسده برودة الشتاء ، يبحث فى الأرض عن أى نبات يمكن أن يأكله .. يشاهد كل يوم الأطلال ، وبقايا مدينة كانت تتألّق ، وتغزو الفضاء ..

حتى لون السماء تغيّر من الأزرق إلى الرمادى الكئيب .. لم يبق جمال فى العالم ، كثيرًا ما كان ينفجر باكيًا .. بكى من أجل البشرية . لا من أجل نفسه ، فلم يحتمل أن تكون هذه هى النهاية ..

لقد عاد الإنسان بعد أكثر من مليون عام ، إلى الكهف مرّة أخرى

كان الدكتور (م) يعمل فى حديقته ، وقبل أن تبلغ الشمس الأفق .

كان قد بلغ نهاية قطعة الأرض .. توقف واستند إلى جاروفه وهو يلهث .. وفجأة .. رأى شيئا ما يتحرك بالقرب منه ، فانحنى والتقط حشرة حمراء اللون ، أخذت تتلوّى بين إبهامه وسبّابته ..

وتساءل بينه وبين نفسه : أهذا تشويه آخر ؟.

وقرّب الحشرة من عينيه ، وحدّث نفسه :

ـــ إنها تكاد تشبه النملة ، فيما عدا أن القفص الصدرى مختلف ..

التزم الصمت وهو يفحص بدقّة هذه الحشرة الغريبة .. إن هذه النملة مختلفة تمامًا عن بنات جنسها ، لقد كانت هذه الحشرات دائما صغيرة الحجم ؛ لأن جهاز تنفسها ضعيف جدًا .. ولكن هذه النملة لها رئات يمكن أن تنمو .. لقد أثر فيها التشويه الذّرى ، والجرثومى ..

وأتت إلى ذهنه فكرة غريبة ..

لو كان النمل فى حجم الإنسان ، وأتيحت له الفرصة لاستخدام ذلك النظام الدقيق ، والدأب المتواصل فى العمل ، فربما حكم العالم ، وأصبح خيرًا من الإنسان !

كانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، وتحرك الدكتور (م) بلا انقطاع .. وفى ركن القبو كانت آلة ، أشبه بقفص فى مثل طول الإنسان ، وتكاد تتخذ الشكل المكعب ..

ابتسم الدكتور (م) لأول مرّة منذ مدة طويلة ، هذا هو اختراعه الذى كان يعرضه على وزارة الدفاع ليستخدم كسلاح .. الآلة التى يمكن أن تنفذ من خلال جدار الوقت ، إلى المستقبل أو الماضى ..

آلة الزمن ، الاختراع المثير الذى أفنى فيه زهرة شبابه ..

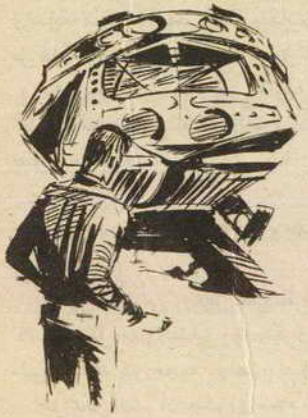

نظر فى فرحة وحشية إلى آلته ، وتمتم :

ـــ أجل .. سأعطى النمل الفرصة ليحكم العالم .. ربما خيرًا من الجنس البشرى .. وليحقق السلام الذى فشل فيه الإنسان .

وأردف بعد دقائق :

ـــ تمامًا .. كنقل نبات من تربة إلى أخرى ، ومراقبة نموه ، فربما أنتج ثمارًا أفضل ..

مرّت أربع عشرة ساعة ، دلف بعدها إلى آلة الزمن ، وقد شحنت بطاريتها ثانية بالطاقة الشمسية ، وراح محرّكها يهتز من جديد .. أغلق على نفسه الباب ، وبدأ صوت الآلة فى الارتفاع ..

وبعد برهة اختفت تمامًا فى رحلة للماضى ...

قبل هذا الزمن بعشرين مليون سنة ، خرج الدكتور (م) إلى تربة صخرية رطبة ، وأشجار ضخمة متشابكة ، وأصوات رهيبة لحيوانات عملاقة ، ومنظر عجيب للسماء والنجوم .. وكانت السحب الكثيفة تعلو رأسه ، والضباب يلف المكان كله ..

أصابت الدكتور (م) زغدة وهو يحفر التربة بأصابعه المرتعدة . وأمال فى عناية القنّينة ، وأسقط إحدى ملكات النمل — التى كان قد حصل عليها من فناء منزله — وقد تدلّت من بطنها كتلة من البيض لزجة ..

وعلى بعد أمتار ، كرّر نفس العملية .. كانت هناك ثمانى ملكات من النمل ، وعندما وضع الملكة الأخيرة ، ألقى بالقنّينة بعيدا ، فتدحرجت بصوت مكتوم ..

تمتم فى ارتياح :

وظهرت ابتسامة مفاجئة على وجهه الوقور .. هذه أعظم لحظات التاريخ ..

عاد إلى آلة الزمن ، وتمهّل ليلقى نظرة على هذا العالم المغرق فى القدم .. كانت يده على جهاز التشغيل وهو يفكر فى النمل ، مفترضا أنه خلال عشرين مليون سنة قد كبر حجمه ، وأصبح له مخ يدرك .. فما عسى أن يحدث ؟

هل يمكن للبشر أن يعيشوا فى سلام معه ؟. ألا يقرّب هذا بين الناس ، فيصبحوا إخوة ، ويتّحدون ضد جنس غريب ؟

وقفزت أفكاره الجنونية إلى أقصى حدودها ، أيمكن أن يمنع هذا الحرب التى قضت على أسرته ؟

أدار عجلة القيادة ، وضبط المؤشر على عشرين مليون سنة إلى المستقبل .. أخذت الآلة تزيح الإحداثيات الزمنية ، بذلك الصوت الذى يصم الآذان ، وباهتزازاتها الفائقة السرعة ..

وجد الدكتور (م) نفسه فى مدينة غريبة ، لم تكن مدينة آدمية على الإطلاق .. كانت المبانى معدنية رمادية ، مخروطية الشكل ، بعضها يرتفع

عشرات الأمتار ، وعلى البعد كانت هناك الجسور أسفلها العديد من الأنفاق ، وفى الشوارع المحدّبة كانت تسير بعض وسائل النقل الآلية غير المألوفة ، حتى الهواء كان يحمل رائحة كريهة نفّاذة ..

خرج من آلة الزمن ، ووقف ينتظر الترحيب من الجنس الذى أسهم فى تطويره ..

ظهرت فجأة أعداد كبيرة من النمل ، جاءت فى عربات غريبة ذات ثلاث أرجل .. كانت هذه المخلوقات قبيحة ، بل بشعة ، فى مثل حجم الإنسان ، ولكنها كانت صارمة النظرات تشبه الخنافس السوداء ، وكانت عيونها أبشع ما فيها .. فلم تكن مستديرة أو رأسية كعينى القط ، أو أفقية كعينى الحصان ، ولكنها كانت عيونا غير منتظمة ، وملطّخة ببعض البقع البيضاء ، وبدت غريبة وغير طبيعية فى رأس النمل البارز ..

تقدم الدكتور (م) لخطوة ، وفى الوقت نفسه خرج النمل من عرباته فى بطء ..

وانقضت دقائق من المواجهة الصامتة ، بين الإنسان والنمل ..

ابتلع الدكتور (م) ريقه ، وضحك أو لهث .. لم يكن واثقا .. وفكّر فى أن يتحدث .. وما عساه أن يفعل غير هذا ، وهو يعلم تماما أن أى لغة لن تكون مفهومة ، ومع هذا ابتسم فى وُدّ ...

لم يد على أسارير النمل تعبيرات يمكن تمييزها ، فقط تحرّكت قرون استشعاره الضخمة فى كل الاتجاهات ، وأدرك الدكتور (م) أنه ليس لدى النمل أى خبرات يمكن أن يعرف منها معنى الابتسامة الآدمية ..

رفع يده بتلك الحركة المألوفة الدالة على التحية ، وانتظر ما عسى أن

تفعله الحشرات ، ولكنها لم تفعل شيئًا .. أشار إلى صدره ، وما زالت فوق شفتيه تلك الابتسامة البلهاء ، التى لم يستطع أن يجد لها معنى ..

قال بصوت مرتعد :

ــ أنا .. آدمى .. آ .. د .. م .. ى ..

وأشار إليهم قائلا :

ــ وأنتم حشرات .. ح .. ش .. ر .. ا .. ت ..

كان النمل يقف دون حراك ، ويحدّق بتلك العيون الجاحظة التى تتركز عليه ، دون ملل ظاهر ..

وأخذ يكمل حديثه فى بطء :

ــ هذه الآلة أخذتنى إلى الماضى ، حيث أمكن لى أن أهب لكم الحياة ..

انتظر ليرى نتيجة هذا الحديث ، ولكن ما زالت هذه الحشرات العملاقة برائحتها الكريهة ، تقف تمثل القُبح والبشاعة .. وقفز قلبه من صدره بسبب حركة بدت من النمل ، فقد بدأ يتحرّك فى انتظام ، مكوّنًا حلقة واسعة من حوله ، أخذت تضيق رُويدًا ..

تملك الدكتور (م) الفزع فجأة ، وأحس بالموت قريبًا جدًا منه ..

استدار فى هلع ليعود إلى آلة الزمن ، ولكنه تعثر ، ولمح شيئًا غريبًا لم يره من قبل ..

تمثال كبير للقنّينة التى أحضر فيها الملكات ، موضوعة على نصب مرتفع ، وكان النمل يحنى رأسه كلما اقترب من التمثال ، وكأنه يؤدى طقوسًا دينية ..

انقضت عليه أولى الحشرات العملاقة ، وبينما كانت رئتاه الفزعتان تمتلئان بالهواء للمرّة الأخيرة ، تساءل الدكتور (م) وهو يحتضر :

ــ يا إلهى .. ألا مفرّ من وجود الشر فى هذا العالم ؟.

اقشعر بدنها فجأة ، وهى تندفع من باب الڤيلا المخصصة لها ولزوجها ، عالم الإلكترونيات العربى الدكتور (رأفت) ، ثم أخذت تعدو فى فناء (المعهد الدولى للفضاء والزمن) المقام فوق أحد جبال التبت ، ثم توقفت وأخذت تلتقط أنفاسها فى ذلك الصباح البارد من عام ٢٠٧٧ .

أخذت عيناها تجولان فى قباب المعامل البلّورية والتى تحوطها النباتات الخضراء كبحر جائع ، وإلى السهل المترامى الأطراف الذى يمتد سريعا حتى حافة الأفق القريب ، وإلى التلال المتألقة التى تحتضن المدينة المشيدة خصيصا لإقامة علماء الإلكترونيات من جميع أنحاء العالم ..

— ١ —

تحته عن بعد ، فأسرعت تنحرف عن المشى حتى وطئت العُشب الأخضر ، وكان ممكنا أن يرى الخوف المروّع الذى يغشى قسمات وجهها . لماذا كان يجب أن يخبرها أحد ؟.

وصلت إليه لاهثة ، وارتمت على صدره ، أخذ يهدئ من روعها :

— حبيبتى .. استردى أنفاسك ..

أخرج من جيب سترته منديلا .. وشرع يربّت جبينها فى حنان ..

سألته وهى تلهث :

— لماذا يا (رأفت) .. لماذا ؟

أجاب فى رقة :

— من أخبرك .. لقد طلبت منهم ألا يفعلوا ..

اغمضت عينيها وتمتمت تقول :

— إننى أتعذب منذ اخترعت هذه الآلة ..

اختلج كتفاها وبدأت تبكى .. فأعطاها منديله وعلى وجهه نظرة يأس لم يستطع أن يخفيها :

— (ماجى) .. أنصتى إلىّ .. إننا واثقون من النتيجة ، ستكون تجربة ناجحة ..

سألته بلوعة :

— ولم أنت ؟. لماذا لم يختاروا عالما آخر ليقوم بالتجربة ؟.

أجابها وابتسامة مطمئنة على شفتيه :

— إنه شرف لنا .. أن أكون أول من يقوم بالتجربة ..

نظرت إلى السحب وهى تمس فى جلال أطراف الجبال من حولها ..

قالت وهى تعبث بالمنديل :

— كنت أعلم أنه لا جدوى من مناقشتك ..

ولم يحر جوابا ..

ثم أردفت تقول :

— أعرف أنه عملك .. وليس من حقّى أن أشكو .. ولكن

التفتت إليه .. أغرقته فى أعماق عينيها الصافيتين :

— لا تكذب على يا (رأفت) .. هل ستكون فى خطر ؟. أهناك احتمال ولو ضئيل أنك لا تعود ؟

ردّ عليها ، وهو يضع يده فى رفق على كتفيها :

ــ لا تخافى يا (ماجى) .. إننى سأعود من أجلك ، و ....

ولكنه توقف عندما ارتمت على صدره .. فاحتضنها بشوق ..

ــ ٢ ــ

كان ما يزال يفكر فى زوجته ، عندما ربط نفسه فى مقعد القيادة داخل آلة الزمن الخافتة الضوء .. كانت عبارة عن كرة كبيرة متألقة على قاعدة من الموصلات الكثيفة ، وكانت الضوضاء شديدة فى الداخل ، بفعل تلك المولدات الجبارة التى تهز المكان كله ..

كانت أشعة الشمس تنساب من خلال النوافذ ذات الألواح الزجاجية الصغيرة ، وتفترش أرض المعمل فى قطع وكأنها نسيج ذهبى ، وكان باقى العلماء يهرعون داخلين خارجين بين الظلال ، يعدُّون الأجهزة استعدادًا لأول تجربة لآلة الزمن ، والانطلاق بها للمستقبل .. فقد كانت النظرية التى أقيمت على أساسها هذه الآلة تقول إنَّ الزمن هو البعد الرابع بعد الطول والعرض والارتفاع .. فلم لا نتحرك فى الزمن كما نتحرك فى الأبعاد الثلاثة الأخرى عن طريق تحويل المادة إلى طاقة بالوصول إلى سرعة الضوء ، تمامًا كما تنبأت نظرية النسبية ..

كان كل من فى القاعة يقوم بالترتيبات النهائية ، وينتظر التعليمات من غرفة الإدارة الدائرية الكبيرة ذات الواجهة الزجاجية الشفافة ، والتى تنبعث منها التعليمات فى شكل شريط ضوئى .

تمتم الدكتور (رأفت) :

ــ عام ٢٥٧٧ ، إننى قادم إليك ..

بدأ الهواء هزيلًا وثقيلًا ، ولكنه كان يعلم أن هذا ليس إلا خيالًا ، ثم نظر إلى ساعة الحائط الإلكترونية ست دقائق ، ثم خمس .. لا أهمية لهذا ، فقد كان مستعدًّا ..

همس فى قلق :

ــ الطقس حار هنا ..

ولكن صوته بدا له أجوف ، غير حقيقى .

أربع دقائق ..

دسَّ يده فى جيب بنطلونه الخلفى وأخرج محفظته ، وبينما كان يفتحها ليشاهد صورة (ماجى) ، سقطت المحفظة على أرضية آلة الزمن ، وحاول الوصول إليها ولكن الأربطة حالت دون ذلك .. نظر بعصبية إلى ساعة معصمه ثلاث دقائق ونصف ، أم دقيقتان ونصف .. فقد كانت ساعته تسجل وقتًا مختلفًا ، وجعل أسنانه تصر ، ما كان يستطع أن يترك المحفظة وإلا امتصتها المروحة الدائرية وأتلفتها .. وكانت الدقيقتان كافيتين ..

راح يفك أربطة الصدر والخصر ، وفتحها والتقط المحفظة ، وعندما بدأ

يعيد تثبيت الأربطة لمح مرّة أخرى الساعة ، دقيقة ونصف ، أم .. ولم يلحظ إشارة البدء الحمراء عند حجرة الإدارة ..

وفجأة .. بدأت آلة الزمن تهتز ..

شعر الدكتور (رأفت) بعضلاته تتقلص ، وامتلأ صدره ومعدته بألم مفاجئ ، وسقطت المحفظة من يده .. راح يتلمس فى جُنُون مقابض التوازن ، وبذل كل جهده ليجعل نفسه ملازمًا لمقعده ، وإذ به يندفع خلال الكوْن .. وراحت الأجرام السماوية تندفع حوله ، حيث تبدو قارات كاملة من النجوم ، وكأنها تحاول الإفلات والترحال وحدها فى الفضاء ، وكانت هناك هوة حالكة الظلمة تفغر فاها ، كنفق محفور خلال النجوم إلى كوْن آخر ..

اعتصرت قلبه نوبة من خوف لا يحتمل .. وصرخ من خلال فم استبد به الرعب :

ــ (ماجى) !.

ارتطم رأسه بشدة بالمكتب المعدنى المواجه له ، وانفجر شىء ما فى مخه ، ومال إلى الأمام ، وذهب الظلام المندفع بوعيه ..

ــ ٣ ــ

كان الطقس باردًا ، وقد طغى الهواء المنعش النقى على طبقات مخه المخدرة ، وكان لمسه كبلسم شافٍ له ..

فتح الدكتور (رأفت) عينيه ، وثبت نظره فى السقف الرمادى ، ولوى رأسه يتأمل المكان من حوله ، وتساءل فى دهشة :

ــ ما هذا المكان ؟

اختلجت فى جسمه بعض الاختلاجات الحادة ، فتألم وأعاد رأسه إلى مكانه الأول :

ــ الدكتور (رأفت) ..

فزع لسماعه الصوت .. وارتمى ثانية فى ألم محض ..

واستمر الصوت الغامض :

ــ ... أرجوك أن تظل بلا حراك .

حاول الدكتور (رأفت) أن يتكلم ، ولكنه شعر بأن حباله الصوتية مخدرة ثقيلة ، وأردف الصوت :

ــ لا تحاول الكلام .. سآتى حالًا ..

أدار الدكتور (رأفت) رأسه ببطء إلى جانب ونظر إلى الغرفة ، كانت مساحتها نحو عشرين مترًا مربعًا ، وكان السقف والجدران بلون رمادى كئيب ، أما الأرضية فقد كانت سوداء وقد صنعت من نوع من البلاستيك ، ولمح على أحد الجدران بابين لا تكاد تراهما العين للوهلة الأولى ..

وبجانب الأريكة التى كان يستلقى عليها ، كان هناك تركيب غير منتظم له أرجل ثلاث ، وقد حسبه (رأفت) مقعدًا .. لم يكن هناك أثاث آخر أو حتى مصدر للضوء ، وقد بدا أن السقف يتألق ، ومع ذلك ففى كل نقطة كان يركز عليها نظراته ، كان الوهج يخفت فيصبح رماديًا لا بريق له ..

ظل الدكتور (رأفت) مستلقيًا يحاول أن يتذكر ما حدث ، وكل ما استطاع أن يتذكره .. الألم ، وذلك الفيض الهائل من الظلام .. انقلب على جانبه الأيمن بألم شديد ، ودس يدًا ترتعش ، وفى جيب بنطلونه

الخلفى كان قد وجد محفظته ووضعها فى جيبه ثانية ، وبإصبع بدت متيبسة أخرجها وفتحها ونظر إلى (ماجى) وهى تبتسم له من مدخل منزلهما ..

فتح الباب مع لفحة الهواء المضغوط ودخل رجل نحيف يكسوه رداء فضى ، كان عمره غير محدد ، أصلع ، وقد بدت ملامحه التى خلت من التجاعيد ناعمة بشكل غير مألوف .. كأنها قناع لا يتحرك :

ــ الدكتور (رأفت) .

تحرك لسان (رأفت) دون فاعلية ، واقترب الرجل الغامض من الأريكة ، وأخرج صندوقًا صغيرًا أزرق اللون من مادة تشبه البلاستيك من جيب ردائه الفضى ، وفتحه وأخرج منه جفنة بلّورية صغيرة ، ودفعها فى ذراع الوافد المستسلم ..

شعر الدكتور (رأفت) بتيار من الحرارة المريحة تسرى فى عروقه ، وقد بدا وكأنه فك تقلص عضلاته ، ونشط مراكز مخه .. تنهد بارتياح ، وقال :

ــ وهذا أحسن .. شكرًا لك ..

جلس الرجل الغامض على ذلك التركيب ذى الأرجل الثلاث ، وأعاد الصندوق إلى جيبه ، ثم أردف يقول فى صوت هادئ :

ــ أظنك تريد أن تعرف أين أنت ..

ردَّ عليه الدكتور (رأفت) فى لهفة :

ــ أرجوك ..

ــ لقد بلغت هدفك تمامًا .. عام ٢٥٧٧ .

رفع الدكتور (رأفت) جسمه على مرفق واحد ، وقد اختفى الألم ، وراح يسأله :

ــ وآلة الزمن .. أهى بخير ؟..

قال الرجل مطمئنًا :

ــ أعتقد هذا .. إنها هناك ..

وأشار إلى أحد البابين المفتوحين فى الجدار . تنفس الدكتور (رأفت) فى ارتياح .. ودس المحفظة فى جيبه ..

عاد الرجل يقول :

ــ كانت زوجتك جميلة ..

سأله الدكتور (رأفت) فى انزعاج :

ــ كانت ؟..

أجابه الرجل فى دهشة :

ــ أكنت تعتقد أنها ستعيش خمسمائة عام ؟..

وبدا الذهول على الدكتور (رأفت) ، ولكنه فى النهاية تمتم كأنه يحادث نفسه :

ــ ومن الصعب على أن أدرك هذا .. وهى عندى لا تزال تحتل قيد الحياة ..

تذكر فى لحظات ليلة الوداع .. كان الثلج يتساقط ، وكانت بجانبه تبكى .. لفها بذراعه اليسرى ، فأرخت رأسها فوق كتفه ..

همس لها :

ــ (ماجى) .

ــ ضمنى إليك ..

ــ يا ربى أين هى الآن ؟..

نظر الدكتور (رأفت) إلى الرجل الغامض، وعاد يتساءل :

ـــ ولكن .. من أنت ؟

ـــ يمكن أن تطلق علىّ (المؤرخ) .

لزم الدكتور (رأفت) الصمت برهة ، ثم رفع نظره فجأة ، ونظر إلى عينى الرجل الرماديتين :

ـــ كم ظللت فاقد الوعى ؟

ـــ أكثر قليلًا من ساعتين .

استوى الدكتور (رأفت) جالسًا ، وهو يقول فى قلق بالغ :

ـــ يا إلهى يجب أن أعود .

نظر إليه (المؤرخ) فى إشفاق :

ـــ أرجو ألا تفعل .. ودعنى أخبرك لماذا أنت هنا ؟

بدت نظرة حائرة ترتسم على وجه الدكتور (رأفت) ، وبدأ يثور فى أعماقه إحساس غامض يغلب عليه الخوف من المجهول ، وتساءل :

ـــ لماذا أنا هنا ؟

قال المؤرخ فى بطء :

ـــ إنه سرّ خطير ، ولكنى سأخبرك به .

ـــ ٤ ـــ

أخرج (المؤرخ) من ثوبه الفضىّ لوحة إدارة صغيرة ، وضغط على أحد أزرارها .. وفجأة بدأت الجدران تتساقط ، واستطاع الدكتور (رأفت) أن يرى خارج المبنى تلك البيوت الزجاجية الهائلة ، والسيارات الطائرة ، وهناك على ارتفاع شاهق وعبْر السطح الذى يقوم على أعمدة ضخمة ، كانت الكلمات واضحة : (مبنى التاريخ الحى) ، وبعد دقائق عادت الجدران سميكة غير شفافة ، تساءل الدكتور (رأفت) :

ـــ حسنًا ؟

اعتدل (المؤرخ) فى جلسته ، وبدا وكأنه على وشك إلقاء محاضرة :

ـــ إننا نبنى نصوص تاريخنا القديم ، ليس من المخطوطات بل من الشهادة المباشرة .

ـــ أكاد لا أفهم .

ـــ ونحن ندوّن شهادة الناس الذين عاشوا فى الأزمنة التى نريد دراستها ..

تساءل الدكتور (رأفت) فى حيْرة :

ـــ ولكن كيف ؟

ـــ بإعادة تركيب الشخصية غير المجسدة ..

وانعقد لسان الدكتور (رأفت) برهة :

ـــ الموتى .

أجاب (المؤرخ) فى برود :

ـــ بل الذين لا جسم لهم ..

واستمر يتحدث فى هدوء :

ـــ فى النظام الطبيعى ، توجد شخصية الإنسان مستقلة عن إطاره الجسمى ، وقد أخذنا هذه الحقيقة واستخدمناها لصالحنا ، وما دامت الشخصية تبقى إلى ما لا نهاية ، وإن كان ذلك بقوة تتناقص ، بذكرى شكلها الجسمانى وملابسها ، فلا يعدو أن يكون الأمر قاصرا على تزويد هذه الذكرى بالمواد العضوية ، و ...

قاطعه الدكتور (رأفت) مذهولًا :

— ولكن هذا شىء لا يصدقه العقل . ففى زمننا هناك محاولات لتحضير الأرواح . ولكن ما من شىء يقرب من هذا ..

أكمل (المؤرخ) دون اكتراث مما قاله الدكتور (رأفت) :

— حالتك قد وفرت علينا صعوبة إعادة تركيب شخصية من لا جسم لهم من زمنك ، فقد وصلت إلينا داخل آلتك .

ضغط الدكتور (رأفت) على يديه المرتعشتين ، وقال بصوت مرتجف :

— ولكنى لا أستطيع البقاء طويلًا .. ماذا لو سألتنى ما تريد أن تعرفه ؟

أخرج (المؤرخ) لوحة الإدارة ، وضغط على زر أحمر ، ثم قال :

— صوتك سيسجل الآن .

استند إلى الوراء ، وشبك يديه اللتين لا لون لهما ، ووضعهما فوق صدره :

— فلنبدأ بالحياة اليومية فى زمنكم ..

وبعد نصف ساعة من الحديث ، قال (المؤرخ) :

— إن هذا يكاد يتفق تمامًا مع ما نعرفه فعلًا .

بدا (المؤرخ) مدركًا لأفكار الدكتور (رأفت) القلقة ، وكان ما يزال يتحدث إليه :

— إنك كعالم يجب أن تهتم بمظاهر إعادة التكوين ..

وكل تفصيل محدد تحديدًا مفصلًا ، والصعوبة الوحيدة التى يجب أن يذللها علماؤنا ، هى قوة الذاكرة وتأثيرها على الجسم الذى أعيد تكوينه . وكلما ضعفت الذاكرة أسرع الجسم فى الانحلال ..

ولم يكن الدكتور (رأفت) ينصت ، بل كان يفكر فى زوجته ..

أردف (المؤرخ) :

— وتختلف مدة بقاء الجسم ، فالشخص المعاد تكوينه من زمنك مثلًا قد يبقى حوالى ربع ساعة ..

أحس الدكتور (رأفت) بالألم ، وبثقل الاكتئاب الساحق والرعب الذى تتلاطم أمواجه فى ذاكرته ، ثم استلقى على الأريكة وهو يحملق فى السقف وما زال يفكر فيما قاله (المؤرخ) قبل خروجه :

— من المستحيل أن تعود ، لقد انتقلت فى الزمن ، وأنت الآن تنتمى إلى القرن السادس والعشرين ..

لقد كانت (ماجى) تنتظره ، كان من المفروض أن يكون العشاء على الموقد ، وهى تعد المائدة وأصابعها النحيلة تضع الصحاف والأكواب التى تتألق ، وأدوات المائدة الفضية ، ولابدَّ أنها ترتدى مئزرًا خفيفًا ثوبها الأبيض الذى يحبه .. لقد كانت تنتظره ، وعيناها الزرقاوان تنبئان عن القلق ..

لوى رأسه فى ألم شديد .. أيمكن أن يكون هذا صحيحًا ؟

لكنه مسجون خمسة قرون بعد وجوده الحقيقى .. لقد كان هذا جنونًا ولكنه هنا .. وكانت الأريكة المريحة تحته والجدران الرمادية حوله ، كل شىء كان حقيقيًا ..

كان يريد أن يثور ، يصرخ ، وأن يكسر شيئًا .. وانفجر الغضب فى أجهزة جسمه كشلال مدمر ، وغرس قبضتيه فى الأريكة ، وصدرت منه صرخات عالية لا تعنى شيئًا ، ثم انقلب إلى جانبه مواجهًا البابين وتساقطت دموعه ، ثم خف غضبه الجامح ، وزمَّ شفتيه حتى أصبحتا خطًّا رفيعًا ..

همس فى رعب ، والشعور بالوحدة يغرقه تمامًا :

— (ماجى) ..
وفتح الباب ودخلت
(ماجى) ..

— ٥ —

جلس الدكتور (رأفت) وقد تيبس جسمه .. وفغر فاه وعيناه تختلجان ، ويكاد أن يفقد الرشد ..

كانت تقف هناك ، تتشح بثوب أبيض ، وتنطق عيناها الزرقاوان بالحب الذى تكنه له ، ولم يستطع أن يبقى مكانه ساكنا ، وخاف ألا تحمله عضلاته ، ومع ذلك وقف على قدميه وهو يفتح لها ذراعيه ، وجاءت إليه ..

لم يكن ثمة رعب فى نظراتها ، بل كانت تبتسم فى سعادة متألقة ، ومرّت بيدها مواسية على خدّه .. وعندما لمس يدها ، أنبعث من شفتيه صوت نشيج ، ومدّ يديه المرتعشتين وأمسك بها ، وضمها إلى صدره بقوة وهو يدفن رأسه فى شعرها الذهبىّ الحريرى ..

وتمتم يقول :

— (ماجى) .. حبيبتى ..

همست تقول له :

— كل شىء الآن على ما يرام ..

فاضت السعادة فى عروقه وهو يقبل شفتيها الدافئتين ، وقد زال عنه الرُعب الممزوج بالخوف من الوحدة ، وراح يجرى أصابعه المرتجفة فوق وجهها ، وبينما هو جالس وعيناه مغمضتان تمامًا ، طرأت عليه فكرة مروعة ..

قال لها وكأنه يخاف أن يسألها :

— (ماجى) .. كيف جئت إلى هنا ؟.

وقبل أن تجيب .. صرخت فجأة :

— (رأفت) .

نظر بفزع إلى يدها اليسرى وهى تتلاشى فى الهواء ، وقف مذهولا يرقب جسمها يتحوّل إلى ضباب أبيض ، ثم لا شىء ، ومد يديه فى يأس يحاول أن يمنع رحيلها ..

(ماجى) .. رسمت شفتاه اسمها دون أن يصدر عنهما صوت .. ويسقط مغشيًا عليه ، وعندما عاد إلى وعيه ، كان المؤرخ جالسًا فى مقعده :

— يؤسفنى أنك أسأت تأويل ما حدث ..

ولم يقل الدكتور (رأفت) شيئًا ، ولم تتحوّل نظراته عن وجه المؤرخ ، ولكن حرارة جسمه ارتفعت واختلجت عضلاته .. ألقى بنفسه فى وضع جالس وعيناه تلمعان بغضب جُنونى ، وأردف :

— أيها الشيطان .. لماذا تحتفظ بى سجينًا ، وتعذبنى بطيف زوجتى ؟

هبّ واقفًا على قدميه ، وقد انشبت أصابعه فى أقواس من اللحم ، وصرخ :

ـــ سأعود إلى زمنى ولن تمنعنى .

وقف المؤرخ أيضًا ، ودس يده فى جيب ردائه ، وقد أثارت هذه الحركة الدكتور (رأفت) .. وما أن أخرج المؤرخ العلبة البلاستيك ، حتى ضرب يده فأوقعها على الأرض .

ـــ وقال المؤرخ فى هدوء :

ـــ أرجوك احتفظ بأعصابك هادئة ، أما عن زوجتك (ماجى) ..

وما أن سمع الدكتور (رأفت) اسمها الحبيب يلقى هكذا بعدم اكتراث ، حتى فاض غضبه ، وانطلقت يده وأحاطت بعنق المؤرخ الرفيع ، حتى أصبحت عيناه الشبيهتان بعينى السمكة تبرزان من مآقيهما ، وقد امتلأ حلقه بصوت متقطع من جرّاء ضغط أصابع الدكتور (رأفت) عن عنقه ، وراح يحاول إبعاد الأصابع المتصلبة على عنقه ، ولكن عبثًا ...

مرّت دقائق ارتدت بعدها عين المؤرخ إلى الوراء ، وأصبح جسمه رخوًا ليّنًا ، وسقط على الأرض .. أسرع الدكتور (رأفت) إلى الباب الذى يحوى خلفه آلة الزمن ، ولكن الباب استعصى على الفتح ، دفعه ، ألقى بثقله عليه ، أعمل أظافره فى أطرافه العليا والسفلى والجانبية ، محاولًا جذبه ، ولكنه ظل محكم الإغلاق ..

تراجع الدكتور (رأفت) وقد غشيته نوبة جنون يائس ، وفجأة تذكر شيئًا ، هرع إلى جسم المؤرخ الفاقد الشعور ، ودس يده فى ردائه ، وأخرج لوحة الإدارة الصغيرة ، وضغط على زرٍّ فهبطت الجدران .. وفى لهفة اتسمت بنفاد الصبر ، ضغط على زرٍّ آخر وآخر ..

وأخيرًا فتح الباب وشاهد آلة الزمن تتوسط الغرفة .. اندفع إليها

ودخلها وأغلق عليه بابها .. اكتسحت عيناه المؤشرات ، وجلس فوق مقعد القيادة وربط الأحزمة حول جسمه ، ورأى أن الرقم الرئيسى لا يزال مضبوطًا على خمسمائة عام ، فأعاده إلى الوضع العكسى ، ليعود إلى زمنه ..

بدا كل شىء جاهزًا ، وكان عليه أن يخاطر فلم يكن هناك وقت لكى يتحقق من أى شىء ، فقد رأى المؤرخ وهو يتحرك .. تشجع الدكتور (رأفت) وشغل المحوّل الرئيسى ، ولكن الآلة لم تعمل ، وناضل لكى يركز تفكيره ويتذكر .. وارتعدت أصابعه فوق اللوحة الرئيسية ، بينما كان يختبر التوصيلات الكهربائية والإلكترونية ، اتضح له أن هناك فيشة فى غير وضعها ، أعاد تثبيتها بيد ترتعد ، وفى الحال بدأت آلة الزمن تهتز ، وكان صريرها ألحان كالموسيقى فى أذنه ..

راح الكَوْن يتدفق من حوله ثانية ، أغرقته الأمواج السوداء الهائلة ، ولكن هذه المرّة لم يفقد الوعى ، بل بقى رابط الجأش .. توقفت الآلة عن الاهتزاز ، وكان السُكون يصم الآذان ..

جلس الدكتور (رأفت) فى غبشة الظلام يلهث ، ثم أمسك بالعجلة التى تفتح الباب ، أدارها بسرعة ثم قفز إلى المعمل ، ونظر من حوله متعطشًا إلى رؤية الأشياء المألوفة .. وكان المعمل خاليًا ، ولم يكن هناك إلا ظلال الآلات فوق الجدران .. أخذ يلمس الأرائك والمقاعد والآلات وأى شىء ، حتى يقنع نفسه بأنه قد عاد فعلًا .

صاح فى فرحة :

ـــ إن هذا حقيقى ..

وأخذ يكرّر هذه العبارة بطريقة هستيرية :

ـ (ماجى) ..

حاول أن يصرخ باسمها ، فقد كان يريد أن تعلم أنه عاد ، ولكن لم ينبعث منه صوت ما ، وشعر بأن أجزاء من حلقه تتلاشى .. كان يجب أن يصل إليها بكيفية ما وأن يدعها تعلم أنه عاد من أجلها ..

هرع إلى قُبلته القريبة ، ووصل إلى قمة منبسط الدرج ، وجد الباب مفتوحًا ، فقد كانت تنتظره .. ومن خلال فتحة باب غرفتها ، شاهدها مستلقية على الفراش ، وقد أنهكها الحزن .. ناداها ولم يصدر منه صوت ، وانهمرت دموع من الغضب فى عينيه :

ـ لا حياة لى دُونك ..

كانت كلماتها التى تذكرها تعذبه ، وكان بكاؤه أشبه بتصاعد حمم البركان الرقيقة الشفافة .. إنه الآن قد رحل أو كاد ، وكان آخر أجزائه قد انسكب على السجاد كأنه ضباب الفجر أما سواد عينيه فظهر كالخرز المتألق .. ثم أردف :

ـ (ماجى) .. لشد ما أحبك ..

ولكنها لم تستيقظ ، اقترب منها أكثر ، ونهل من منظرها السريع الزوال ، ورزح عقله تحت حمل ثقيل من اليأس ، ورثت أنة ضعيفة عن طيفه النذير .. ثم أصبحت المرأة التى ابتسمت فجأة من نومها القلق وحيدة فى الغرفة ، فيما عدا عينين محبتين عاشقتين ، ظلتا معلقتين لحظات ثم اختفتا ..

* * *

روايات مصرية للجيب

سلسلة نوڤا للخيال العلمى

بعد مليون عام

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

تحسّست أصابعى المرتعدة الملف الموضوع أمامى ، والمكتوب عليه بحروف كبيرة (مستقبل الإنسان) ، بقلم الدكتور (عاصم فوزى) ..

نظرت إلى المرآة أمامى ، كان وجهى مقطبًا ، وعيناى زائغتين ، وذقنى غير حليقة ، وشعرى أشعث ..

كنت كمن ينظر إلى وجه شخص آخر ..

شخص محطَم تمامًا ..

أزحت الأوراق جانبًا ، وضممت قبضتى اليمنى ، وهويت بها فى غضب فوق المنضدة ..

انتصبت واقفًا .. ودفعت المقعد ورائى فسقط بصوت مكتوم ..

ثقل تنفسى فجأة ، وكأنما استحال الهواء إلى سائل يدخل رئتى ..

شعرت بأن شيئًا ضخمًا يقف وسط الظلمة المدهمَة ، التى انتشرت فيها أشياء صغيرة ، وأشباح غريبة ، تحُول بينى وبين التحرُك بحرية ..

لعنت ما حولى فى يأس ، وأدركت أننى لن أعود أبدا كما كنت ، لقد حاولت المستحيل فى خلال الشهر الماضى أن أنسى الأحداث الرهيبة التى مرّت بى ، ولكن دون جدوى ..

إن أقسى ما فى الأمر أننى لا أدرى كيف أبدأ رواية ما حدث ، ومنذ أربعة أيام وأنا أروّض نفسى على التزام الصدق والصراحة فيما سأرويه ، وقد استغرق هذا كل تفكيرى ..

لا شك أن هذا الأمر فوق طاقة أى إنسان ، أن يظل طول حياته رهنًا لحادث غريب شغل من تلك الحياة يومًا واحدا ، بل ساعة واحدة فقط ..

كم كنت أحدّث نفسى فى شبه هذيان ، هل حدث هذا حقيقة ؟

طغت علىَ فكرة راسخة ، رأيتها الأمل الوحيد فى النجاة من الذكرى التى تكتسح عقلى وكيانى ..

أن أروى لكل الناس قصة ذلك الحدث الرهيب ..

— ١ —

كان الدكتور (عاصم فوزى) فى مثل سنّى ، قضينا طفولتنا معا ، وكنّا نجلس متلاصقين فى المدرسة الثانوية ، ولكنه كان أكثر ذكاء منّى ، فقد كان يحصل على الدرجات النهائية دائمًا فى المقرّرات العلمية ..

ولمّا انتهينا من مرحلة التعليم الثانوى ، ومرّت ثمانية أعوام ، فوجئت بخطاب منه فى شهر يونية الماضى ، يدعونى فيه إلى زيارته فى منزله بإحدى القرى القريبة من مدينة طنطا ..

انتهزت هذه الفرصة لأرى صديقًا عزيزا ، ولأقضى إجازة الصيف فى الريف ، فقد كنت مرهقًا بالعمل ، وأحتاج لفترة من الراحة ..

وحيث أن الأحداث التى مرّت بى فى منزل صديقى تتعلق بالمخ البشرى ، فإننى أودُّ فى البداية الاعتراف بأن معلوماتى عن هذا العضو من الجسم البشرى ، معلومات أى شخص نال قسطا من التعليم الجامعى ، فقد كنت أعرف أن المخ ، هو عبارة عن كتلة من مادة هلامية ذات لون رمادى مائل إلى الحُمْرة ، يحميها سائل خاص بامتصاص الصدمات الناجمة عن الرضوض والضربات الحادّة .. وهو مغلف بثلاثة أغشية منها غشاء خارجى

يتميز بالصلابة .. ويكون المخ دائما على اتصال بمجرى الأحداث . عن طريق الخلايا العصبية التى تترجم المؤثرات الخارجية والداخلية . إلى نبضات كهربية ضعيفة ترسلها كإشارات عن طريق ألياف عصبية إلى المركز الخاص بها فى المخ . فيتصرف بموجبها . وهذا الاتصال يتم فى زمن أقل من الثانية .. وهكذا يلعب المخ الدور البيولوجى الرئيسى ليمكننا من التوافق مع مختلف المؤثرات الخارجية والداخلية ..

وجدت منزل الدكتور (عاصم فوزى) مريحا بما يكفى . بغرف متسعة عالية السقوف . ونوافذ عريضة تطل على المزارع الشاسعة .. وبعد أن وضعت حقائبى فى إحدى غرف النوم . وبينما كان الطاهى يعد طعام العشاء . صحبنى الدكتور (عاصم) فى جولة لتفقد المكان ..

لقد أضاف إلى المنزل ملحقا صغيرا . يتفق فى تصميمه مع طراز المبنى القديم . وكان يستخدمه كمختبر .. وفى داخله كانت الجدران مغطاة بالفلين الأسود . ويتناثر فى كل مكان الأجهزة الغريبة المتألقة .. وفى وسط المختبر كان هناك جهاز كبير يتكوّن من أسطوانة ضخمة من معدن رمادى . ترتكز على مكعب من نفس المعدن . وممتدة منه أنبوبة شفافة يبلغ قطرها حوالى نصف المتر . تنتهى بما يشبه تابوتا من الزجاج القاتم .. وكان فى ركن المختبر مجموعة من المولّدات والمحرّكات تمثل القوة المحركة

نظرت بدهشة إلى كل هذه الأجهزة وتساءلت :

ــ ما هذا يا (عاصم) ؟ هل تجرى تجاربك هنا ؟

ضحك الدكتور (عاصم) وهو يجيب :

ــ يظنوننى فى القرية مجنونا . فهم يعرفون أننى بيولوجى . ولى مختبر

هنا . وأقوم بعمل رهيب . ولهذا فإن الخدم لا يبقون فى المنزل ليلا

أردف يقول بعد لحظات من الصمت

ــ ولو عرف أهل القرية ماذا أفعل حقا . لانتابهم الخوف أكثر من الآن .

قلت وأنا أبتسم بدورى :

ــ هل تمثل علىّ دور العالم الكبير ؟!

شاركنى الابتسامة للحظات . ثم ابتدرنى فى جدّية وكأنه يفضى إلىّ بسرّ خطير :

ــ لقد طلبت منك الحضور . لترى ماذا أفعل . ولتساعدنى على إنجازه . فأنت صديق عزيز .

قلت ساخرا بالرغم منّى :

ــ فيم أساعدك ؟.. فى تشريح الضفادع .. يا لها من عطلة صيف !

أجاب الدكتور (عاصم) بجدّ .. بعد أن صمت قليلا :

ــ الأمر ينطوى على أكثر من تشريح للضفادع .

اضطجع إلى الوراء ، وأشعل سيجارة ، جذب منها عدة أنفاس ، وران السُكون لحظات قبل أن يعاود الكلام :

ــ هل تعرف أى شىء عن التطوُّر ؟.

وقبل أن أجيب بالنفى ، أكمل حديثه وكأنما فقد تماما الإحساس بوجودى :

ــ أعتقد أنك تدرك أن كل حياة على هذه الأرض ، قد بدأت من بروتوبلازما ذات خليّة واحدة ، وهى كتلة هلامية نمتْ منها كائنات صغيرة ، ومن هذه تكوَّنت مخلوقات بحرية ، وزواحف أرضية ، وثدييات ، وذلك بتحوُّلات متتابعة .. وهذا التطور البطىء جدًا بلغ أعلى نقطة له حتى الآن فى الإنسان ، ولا يزال مستمرًا بنفس البطء بمشيئة إلهية ..

تساءلت فى دهشة :

ــ ما علاقة التطوُّر بعملك هنا ؟

أجاب شاردًا :

ــ هذا القدر من المعلومات معروف بيولوجيا ، ولكن السؤال الذى يحيِّرنى هو : ما الذى سيكون عليه تطوُّر الإنسان فى المستقبل ؟.

حملقت فى وجهه النحيل الذى أجهده السهر ، واستمر فى حديثه :

ــ لقد وجدت الإجابة بعد تجارب عديدة عن سبب التطوُّر .

سألت فى لهفة :

ــ وما هو ؟.

أجاب الدكتور (عاصم) فى تؤُدَة :

ــ الأشعة الكوْنيَة .

ردَّدت كلماته دون إدراك :

ــ الأشعة الكوْنية !.

ــ ٢ ــ

اعتدل فى جلسته ، وقال كأنه يلقى محاضرة علمية :

ــ أجل الأشعة الكونية ، تلك الأشعة القادمة من أعماق الفضاء ، والتى تتكوَّن من جسيمات ذات طاقة عالية ، نوى ذرَّات ، وإلكترونات تجول بسرعة هائلة تقرب من سرعة الضوء .. وعندما تصطدم بذرَّات الغلاف الجوى لكوكب الأرض ، تتهشم نوى الذَرَّات ، وتحتوى الشظايا الناتجة على جسيمات تستطيع أن تتغلغل حتى تصل إلى سطح كوكبنا ، فتصيب كل الكائنات ولكن دون ضرر ، إذ أنها تسقط بكميات ضئيلة جدًا .. أى أن ما يصل إلينا هو الإشعاع الثانوى الذى أنتجته الأشعة الكوْنية الأولية فى الغلاف الجوّى .

صمت برهة ليلتقط أنفاسه ، ثم عاد يكمل :

ــ إن هذا التأثير هو ما يسمى بـ (التطوُّر) .. فإن تلك للأشعة الكوْنية وهى تضرب الأرض باستمرار من أعماق الفضاء الخارجى ، هى التى تسبب التغيرات العميقة فى بناء خلايا الكائنات الحية .. حقًا إن هذه التغيرات بطيئة ، ولكن بفضلها ارتفعت الحياة على مرّ الأجيال من البروتوبلازما البدائية إلى الإنسان ، ولا تزال ترتفع إلى أعلى بمشيئة العناية الإلهية .

لم أستطع أن أمنع نفسى من أن أقول :

ــ هل أنت واثق مما تقول ؟.

أجابنى الدكتور (عاصم) بهدوء الواثق من نفسه :

ـ غدا سأثبت نظريتى هذه .

فزعت ، ثم قلت :

ـ ماذا تعْنى ؟.

ـ وجدت فى الأشعة الكوْنية سبب التطوُّر ، ولكن ما عسى أن يكون عليه تطوُّر الإنسان فى المستقبل ؟.

ـ ولكن كيف يمكنك ...

قاطعه الدكتور (عاصم) وعيناه تتألقان :

ـ لقد توصّلت فى الشهور الأخيرة إلى أن أفعل شيئا لم يتوصّل إليه عالم بيولوجى من قبل ، وهو تركيز الأشعة الكوْنية وإزالة خواصها الضارّة منها .. هل رأيت الأسطوانة التى ترتكز على المكعب المعدنى فى مختبرى ؟.. إنها تقوم بتجميع الأشعة الكوْنية التى تضرب مساحة الحديقة وتعكسها داخل المكعب .. وهذه الأشعة الكوْنية المركزة ، أقوى ملايين المرّات من الأشعة الكوْنية العادية ، ويمكنها أن تسبب تطويرا للكائن الحى فى دقائق ، مثل تأثير الأشعة الكوْنية العادية لمدة آلاف السنين .

ـ ٣ ـ

لا أتذكر بالتحديد ماذا فعلت فى الليلة السابقة على إجراء التجربة بمختبر الدكتور (عاصم فوزى) ، فالأحداث متداخلة فى ذهنى . ولكن مازلت أذكر بالتحديد وأنا أواجهه فى صباح ذلك اليوم الحار ، محاولا أن أقنعه بالعدول عن فكرة إجراء التجربة ، ولكن دون جدوى :

ـ إنك لا يمكن أن تتصوّر شعورى .. وأنا على وشك إجراء التجربة .. لأرى ما سيكون عليه الإنسان بعد مئات الألوف من السنين ..

وأشار إلى الجهاز الضخم الذى يملأ المختبر ، وقال :

ـ كما قلت لك ، فالأشعة الكوْنية تتركز فى هذه الأسطوانة ، وتمر فى هذا المكعب المعدنى حتى يزيل الخواص الضارة منها ، ثم خلال هذه الأنبوبة الشفافة إلى التابوت الزجاجى القائم حيث سأرقد ..

قلت حائرا :

ـ ولكن ما هو دورى ؟.

ـ عليك يا صديقى العزيز أن تضغط على هذا الزّرّ الأحمر ليعمل الجهاز ، ثم تعيد الضغط عليه ليتوقف ، سنبدأ بتركيز الأشعة الكوْنية على جسمى لمدة خمس دقائق ، أو ما يعادل حوالى مائتى ألف عام من تطوُّر الإنسان .. والآن فلنبدأ التجربة ..

مددت يدى المرتعدة إلى الزّرّ الأحمر وضغطت عليه ، وبدأت للتوّ صوت المحركات وهى تعمل ، وظهر نور أبيض وهّاج داخل الأنبوبة الشفافة الموصلة .. كنت أعلم أن الأشعة الكوْنية ليس لها لون ، ولم أدر ما هذا النور الأبيض المتألق .. وبرغم أن التابوت الزجاجى الذى يرقد فيه الدكتور (عاصم) معتم ، لا يسمح بالرؤية من الخارج ، إلا أننى كنت أشعر به يبتر بعُنف تحت تأثير الأشعة الكوْنية المركزة .. كنت أمسك ساعتى بيدى اليُسرى ، ويدى اليُمنى فوق الزّرّ الأحمر .. ومرّت الخمس دقائق كدهر طويل ، وبعدها تماما أوقفت الجهاز الغريب عن العمل ..

تطلعت إلى التابوت الزجاجى القائم ، ومرّت عدة ثوان ، ثم نهض منه شخص آخر غير الدكتور (عاصم) الذى أعرفه ، فقد أصبح جسمه أكبر

طولا ، يمتلئ بالنشاط والحيوية والصحة ، وعيناه تتألقان بالسعادة .. وبرغم أنه كان يترنح ، إلا أنه كان يضحك بفرحة شديدة ..

لم أستطع أن أمنع نفسى من أن أقول بدهشة :

— يا إلهى .. ما هذا التغير الغريب ؟.

ردَّ علىَّ بصوت قوى ، اهتزت له جدران المختبر :

— إنه شىء هائل يا صديقى .. إننى أسبق الإنسانية بمائتى ألف عام .. إنك لا تتصوَّر بم أشعر الآن ، إن فى ذهنى مشروع كامل للوصول إلى كواكب المنظومة الشمسية وإقامة المستعمرات بها ، بل وانطلاق الإنسان إلى النجوم .. تصاميم الصواريخ ، الوقود المستخدم ، مشروع كامل .. إن هذه الأجهزة تبدو لى بدائية للغاية ، إن التجارب العلمية التى استغرقت منّى سنوات ، يمكن أن أجريها الآن فى دقائق .. إننى مستقبل الإنسان ، المستقبل الرائع ..

— اهدئ .. لقد حققت تجربتك بنجاح كبير .. توقف عند هذا الحد ، وأعلن للعالم اكتشافك حتى تفيد البشرية كلها .

فجأة .. انتابه غضب جُنونى ، لم أكن أتصوَّر أنه من طبيعته :

— ماذا تقول ؟.. إننى ما زلت فى أول الطريق ، أريد أن أعرف المزيد عن تطوُّر الإنسان فى المستقبل .

ثم هدأ ، وقال فى توسُّل :

— أرجوك .. اضغط على الزّر لمدة خمس دقائق أخرى .

لا أنكر أن التجربة أصبحت مثيرة حتى بالنسبة لى ، ومن ثم نفذت تعليماته وأنا فى شوق لأرى ما الذى سيحدث ..

— ٤ —

مرّت الخمس دقائق سريعة جدًا ، فأوقفت الجهاز وكلى لهفة لأرى ما سيكون عليه الإنسان بعد أربعمائة ألف عام .. لم يخرج أحد من التابوت

الزجاجى .. انتابنى القلق .. تردَّدت لحظات ، ثم هرعت إليه وأنا أرتعد ، ولكن بمجرد وصولى للتابوت حدث أمر عجيب ، شعرت بأن صوتا غريبا يهمس لى داخل رأسى :

— لا تخف .. إنى بخير .. اقترب أكثر من الصندوق الزجاجى .

فزعت .. وتسمّرت فى مكانى ، لأن الصوت لم يأت من مصدر خارجى ، بل شعرت به داخل رأسى .. اقتربت بحذر من التابوت ، ولم أستطع أن أمنع صرخة رُعب من أن تصدر من فمى ، لقد كان فى الداخل مخلوق غريب بشع ، تحول الدكتور (عاصم) إلى جسم ضئيل نحيف للغاية ، ورأس ضخم تبلغ حوالى خمسة أمثال الرأس العادية فى أيامنا هذه ...

عاد الصوت يتحدث داخل ذهنى :

— أجل يا صديقى .. هذا هو الإنسان بعد أربعمائة ألف سنة ، مجرد ذكاء خارق ، ومخ هائل ، وجسم ضئيل لا قيمة له ، والحديث يتبادل الأفكار لابدّ أن للتطوُّر بقية .. أريد أن أصل إلى مليون عام فى المستقبل

سمعت الجملة الأخيرة داخل رأسى .. لم تكن رجاء ، ولكنها كانت أمرًا لا يقبل الرفض .. حاولت أن أتردَّد ، منتهزًا أول فرصة للهرب إلى الخارج ، ولكننى أحسست بألم هائل داخل رأسى ، حتى كدت أفقد توازنى من شدة المعاناة :

ــ لا تتردَّد فى تنفيذ أوامرى ..

جاءت هذه الفكرة داخل ذهنى ، كومضة خاطفة من اللهب ..

هرعت إلى الزِّرّ ، وضغطت عليه بكل قوتى لأتخلص من الألم الذى أصبح لا يحتمل .. ولم تمر دقيقتان حتى اهتزت الأرضية فى عُنف ، تحت تأثير انفجار فى التابوت الزجاجى ، تلته انفجارات أكثر شدة فى كل الأجهزة ، وتصاعدت أبخرة بيضاء حجبت الرؤية تمامًا عنّى ، ووجدت نفسى أهرع خارجًا لأنجو من هذا الجحيم ..

ــ ٥ ــ

بقيت فى مستشفى الأمراض العصبية حوالى شهر كامل ، لكى أعالج من الصدمة التى تعرَّضت لها فى مختبر الدكتور (عاصم فوزى) .. وفى تقرير الشرطة أرجعوا سبب وفاته إلى انفجار فى أثناء إجرائه لبعض تجاربه البيولوجية ، والتى لم تعرف طبيعتها تمامًا ، أما الجثة فقد تفحَّمت بالكامل ..

لزمت الصمت فى ذلك الوقت لأننى لم أكن فى حالة تسمح لى بالاعتراف بأيّة تفاصيل ، بالإضافة إلى أننى لا أتوقَّع أن يصدّقنى أحد .. ولكنى الآن ــ بعد أن مرَّت فترة النقاهة ــ أضع كل الحقائق أمام المسئولين ، وفى حوْزتى ملف يحتوى على كافة التفاصيل عن التجربة التى قام بها الدكتور (عاصم) ، وجدته فوق مكتبه فيما بعد ..

إنى أضع هذا الملف تحت تصرُّف أى جهة علمية تستخدم ما جاء به ، من أجل صالح البشرية ..

روايات مصرية للجيب

سلسلة نوقا للخيال العلمى

نهاية الرحلة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

— ١ —

فى البداية كان هناك الشعور بالألم ..

ثم ظهرت مجموعة من الأطياف المظلمة ، تخفق كأنها طيور صامتة على أديم خلفية قاتمة ..

أحلام تسير على غير هدى ..

وبدأت درجة الحرارة تتصاعد ببطء خلال عدة ساعات ..

أصبح على شعره الطويل وذقنه بعض الصقيع ، وفى سكونه وعريه ، وفى نحافته وشحوبه ، كان احتمال الحياة خياليًا ..

كان مجرَّد جثة مثلجة بضوء منتظم أبيض ، موجَّه إلى الصدر فوق القلب تمامًا ..

جثة أخذت تحلُم ، بينما الحياة تدب فيها ببطء ..

انجذب بلا رحمة خلال دهاليز طويلة من الألم ، والرؤى المروِّعة ..

ارتعد الجسم تحت أشعة اللّيزر ..

تقلصت العضلات ، واختلجت الجفون ، وانحسر الصقيع ، فأصبح ندى :

— حان وقت الفحص الدورى ..

فزع .. إذ استيقظ فجأة من سُباته العميق ..

لم يستطع فتح عينيه إلا بصعوبة بالغة :

— حان وقت الفحص الدورى ..

تحامل على نفسه وجلس فى تابوته الزجاجى ، الشفَّاف ..

كانت أمامه اللوحات الإلكترونية بأرقامها التى تتحرَّك ببطء بالغ ،

وكأنها تزحف .. ووميض المعدن الرمادى المصقول ، وصفوف الأزرار المختلفة الألوان ..

شعر كأنه فى عالم اختلطت فيه الذاكرة بالخيال ، وفاق فيه الخيال على الحقيقة :

— قُل شيئًا .. أشعر بنبضات قلبك وبتنفسك .. هل أعطيك صدمة كهربائية ؟.

قال بسرعة ، وبشىء من الخوف :

— لقد سمعتك ..

— تأخرت إجابتك عدة ثوانٍ .. هل كنت نائمًا ؟.

— كلا .. كنت أفكِّر ..

— تفكِّر !.

— أجل .. أفكِّر .. أليس من حقى أن أفكِّر ..

كان الكمبيوتر المتكلم لُخدعة واضحة للتخفيف من وحدته ..

والصوت أنثويًا رقيقًا ، حتى يمكنه أن يتخيَّل أن امرأة حقيقية تتكلم ..

تعلم أن يعيش مع هذا الصوت على مدى سنوات طويلة ..

ألِف أن يقبله وأن يعتمد عليه كجزء أساسى من كونه المحدود ، فى هذه الرحلة الطويلة ..

سألها فى اهتمام بالغ :

— منذ متى ونحن نسافر فى الفضاء ؟.

جاءته الإجابة سريعة .. حاسمة :

— رحلتنا استمرت وقتًا طويلًا جدًا بمقاييسكم !.

أصبح الزمن بلا معنى ..

لقد دفعوا به فى سفينة فضاء تسير بسرعة تقترب من سرعة الضوء الهائلة ، متوجّهة إلى المجرّات البعيدة ..

شعر بشىء أعقبه إحساس مفاجئ بالنشاط ..

أيقن أنها حقنة بدواء ما .. بلسم يبدّد كآبته ، ومعاناته ، ووحدته ..

قال وهو يتلوى من الاضطراب الداخلى :

ــ منذ متى .. وأنا هنا ؟.

ساد الصمت للحظات .. طويلة :

ــ لا أستطيع أن أجيبك ..

وفى خياله قطّبت جبينها ..

هزّت رأسها الفاتن بالنفى ، فتألّق شعرها الأسود القصير :

ــ حسن .. أجيبى عن هذا السؤال إذن : لماذا أنا هنا ؟.

تمهّل الصوت الأنثوى قليلًا ، ثم قالت فى إشفاق :

ــ لقد شرحوا لك المهمّة منذ البداية ، وتطوّعت للقيام بها ..

وأكملت بعد فترة :

ــ إن التوسّع العظيم هو حُلم الجنس الذى تنتمى إليه ، يجب البحث عن كواكب ملائمة للحياة ، بعد أن أدّى التلوّث فوق الأرض إلى صعوبة الحياة ..

قاطعها :

ــ أجل .. إنى أعلم هذا ..

أردفت ، وكأنه لم يتكلم :

ــ هذا معناه أنه فى المستقبل سيجد الجنس البشرى كواكب مناسبة يستقر عليها ، إنك عامل الأمان ..

قال فى سُخرية :

ــ وإذا حدث عطل بسفينة الفضاء ، ماذا نفعل ؟

قالت بسرعة :

ــ من المستبعد أن يلمّ مكرُوه بسفينة الفضاء هذه ، أو بدعامة الحياة ، أو بالأجهزة الإلكترونية ، فأنت ستقوم بكل الإصلاحات ..

قال بدهشة على الرغم منه :

ــ بماذا ؟.. بيدىّ المجرّدتين !؟

قالت مؤكدة :

ــ كلّا .. بل بالأدوات التى سأوفّرها لك فى حالة الطوارئ .. لقد غرست المعرفة فى عقلك الباطن ، وستطلق عند الحاجة إليها ..

تفجَّر الغضب فى كل أنسجته ، فى كل خليّة حيّة ..
صرخ مشيرًا بيده اليمنى المرتعدة ، تجاه جهاز الكمبيوتر :
ــ إنك تكذبين .. فقولى الحقيقة ..

ــ ٢ ــ

نهض وأخذ يسير فى قلق صَوْبَ الحاجز الخلفى ..
كانت سفينة الفضاء من حوله تعمل بكفاءتها المعتادة ، وبدقَّة بالغة ..
وهو يعيش فى مساحة صغيرة ، محددة ، تظاهرها آلات معقَّدة ، تتكفَّل بإمداده بالهواء والطعام والماء بكميات محسوبة ..
بيئة منعزلة يتوافر فيها المأوى ..
والحماية من العالم الخارجى ..
فى مثل هذا المكان تكون التجارب قليلة ، ودائمًا شخصية تمامًا ..
ــ يجب أن تستريح ..
وبعد عدَّة ثوانٍ :
ــ ... ليس هناك ما يدعو للخوف ، فسفينة الفضاء سليمة ، وتعمل بطريقة عادية ، وأنت لم يمسسك سُوء ..
كيف يمكن أن يجادل آلة ؟
كان يستطيع الرفض ، والتمرُّد ، ولكن هناك أساليب تجعله يطيع ، وقد حرص صانعوا سفينة الفضاء على أن يحققوا هذا ، فعدم الطاعة معناه العقاب ..
أخذ يسير كئيبًا ، حزينًا ..
مدركًا فى قلق قصورًا بدنيًّا ، فساقاه مثلًا هل كانت تؤلمانه دائمًا ، كما يحدث الآن ؟

تعوَّد على مرِّ السنين ضعف بصره ، حتى أصبح من الطبيعى ألا يستطيع رؤية التقسيمات الدقيقة على اللوحات الإلكترونية ..
أخذ يحملق فى الجدران الرمادية ، والسقف الداكن ، والأجهزة الإلكترونية ، والكمبيوتر ، والصوت الأنثوى ..
لقد ركَّب وجهًا وجسمًا لهذا الصوت .. إنها فتاة رائعة الجمال . متوسطة القامة ، بشعر فاحم يتموَّج فوق الكتفين تمامًا .. وكانت عيناها سوداوين غائرتين ، مجعدتين عند ركنيهما ..
اتشحت بالسَّواد ، مما أضفى على وجهها الفاتن ظلالًا من الحزن العميق ..
قال بصوت مُفْعَم بالحزن :
ــ أعطنى منظرًا كاملًا للفضاء الخارجى ..
تحوَّل جزء من الجدار الرمادى إلى شاشة شفافة هائلة ..
كانت مجرَّة (أندروميدا) رائعة الجمال ..
دوَّامة من الضوء منتشرة عبْر نصف الكوْن ، وفى مركزها كان الضوء أشد تألُّقًا من باقى أجزائها .. نواة المجرَّة ، حيث تتكاثف النجوم من كل الأحجام ..
ظنَّ أن كُرة النجوم المشحونة ستكون مشتعلة بألوان الطيف ..
لم يستطع أن يميِّز نجومًا بعينها ، وإنما رأى وهجا غامضا حول نقطة مركزية متألقة ...
استرعى ضوء خاطف ركن عينه اليمنى ..
التفت ليرى نجمًا ينفجر .. (نوفا) .. تتألق باللونين الأبيض والأحمر القانى ..
شمسًا تمزِّقها التيارات المروِّعة ، وقبلها ذو العشرة ملايين درجة حرارة ..
قد انسكب بجلال عبْر السماء ..

— ٣ —

تهالك فوق مقعد بجانب الكمبيوتر ..

قال وهو يتنهد :

— حدّثيني .. اختاري موضوعًا ، أي موضوع .. إنك ذات شعر أسود فاحم ، وجميلة ، بل رائعة الجمال .. فما هو شعورك وأنت سجينة هذه الآلة ؟. هل أقتحم سجنك وأطلق سراحك ؟.

قالت بدهشة :

— ما الذي تقوله ؟.

— تخيّلي شخصًا وحيدًا يشعر بالمرارة والألم ، ويشتاق للحب .. أخبريني .. أتعرفين ما هو الحب ؟.

تمرُّ لحظات من الصمت :

— لم أبرمج لأدرك هذا الشعور ...

نظر من خلال الشاشة الماثلة إلى الفضاء الخارجي ، حيث تتداخل ألوان الطيف بشكل رائع :

— سأخبرك إذن .. إنه بُعْدٌ خامس فيما وراء الزمن . إبحار في دوّامة مروّعة ، نجم يتألّق في كوْنٍ آخر ، ضباب مطرز بالماس يتموّج أمام العيون ، ستار غير مرئيّ ..

قاطعته في حدّة :

— جعلتك الوحدة شاعرًا ..

يتهدّج صوته بالرغم منه :

— من يتذكّر العيون السّوداء .. ولا يصبح شاعرًا !.

— أنت غير منطقي على الإطلاق .

لم يَرُدّ عليها ..

نظر إلى يديه في ضوء سفينة الفضاء الشاحب ، وإلى الأوردة السميكة ، والبقع المبرقشة ، والجلد الذي تجعد فوق مفاصل الأصابع ..

كانت يداه في يوم ما .. صغيرتين وقويتين ويطيب للإنسان رؤيتهما ..

فمتى تغيّرتا ؟

عاد يتساءل :

— ماذا يحدث عندما أموت ؟.

لم ينتظر إجابتها ، بل نهض في تثاقل ، وأدرك في قلق قصورًا بدنيًا .. فساقاه مثلا ، هل كانتا تؤلمانه دائمًا ، كما تؤلمانه الآن ؟

كاد الألم والترذّد الخفيف لقدمه اليسرى ، أن يجعلاه يتعثر ، لولا أنه أنقذ نفسه بالتشبّث بالمقعد ..

أكان هذا شيئًا جديدًا .. ألم تعرض له من قبل ؟.

إنه لا يتذكّر ، فقد ضعفت فجأة قدرته على التذكّر ..

جاءه الصوت الأنثوي أخيرًا :

— عندما تكف عن القيام بعملك ، فإننا نكون قد وصلنا إلى نهاية الطريق ..

وعندئذ سأستمر في قيادة سفينة الفضاء ..

قاطعها :

— إلى أين ؟.

أردفت في بطء :

— سأبدأ في البحث عن عالم مناسب ، يتسلم حمولتنا ..

أخذ يحملق في الكمبيوتر الذي يومض في خفوت ..

شيء ما يشغل تفكيره ، ويحافظ على الوهم بأنه مهم لعمل سفينة الفضاء ..

كيف لم يدرك من قبل أنه غير ضرورى على الإطلاق ؟

إن سفينة الفضاء تعمل بتحكّم الكمبيوتر ، ومع هذا فما كان صانعو السفينة ليرسلوه فى رحلة إلى أعماق الفضاء ، إلا لسبب قوى ..

بدا له الكلام بلا معنى .. لماذا أدمج فى سفينة الفضاء بدون عمل واضح ؟.

إن التغيير الذى تسبّبه السرعات القريبة من سرعة الضوء ، لابدَّ أنه يحدث تأثيرًا فى أجهزة الجسم البشرى ..

كان قياس التغير هو المهم لعلماء كوكب الأرض ..

وتم اختيار متطوّع لإجراء التجارب عليه ، من أجل مستقبل البشرية ..

وضحت له الحقيقة فجأة .. تهدمه .. تحطّم خلايا تفكيره .. تقتله بتدميرها لكبريائه وذاتيته ..

صرخ بقمة انفعاله :

ـــ فأر .. تعنين أننى لست سوى فأر تجارب ، مجرَّد فأر تجارب !.

قالت ، ولم يكن هناك أدنى شكّ فى نبْرة الأسف :

ـــ انتهت رحلتك ..

عندئذ بدأ الجهاز الإلكترونى الدقيق المغروس فى رأسه ، داخل الغدة الصنوبرية .. يجمد الجسم إلى حالة من الجمود الفورى ..

انطلقت غازات التبريد كى تجفف الدماء فى شرايينه ..

وانشقت الجدران المعدنية لتظهر الأجهزة التى ستقوم بتشريح جسمه ، لبيان أثر التغير عند السرعات القريبة من سرعة الضوء ..

لم يكن ثمَّة ألم على الإطلاق ..

ومن ذلك على الأقل ، كان صانعو سفينة الفضاء ..

غاية فى الرحمة ..

ــ هل قرارك نهائى ؟.

كانت اللوحة التى تتضمن هذه الكلمات الثلاث ، مضيئة بعرض الجدار الرمادى الأملس الضخم الذى يمثل المدخل الرئيسى للمبنى ، كانت الحروف تتألّق باللون الفضى ثم تتحوّل ببطء شديد إلى اللون الذهبى ..

كان باب الدخول الخشبىّ السميك مغطّى بالأسماء والتعليقات والتواريخ التى حفرها الذين دخلوا المبنى ، ولم يعودوا أبدا ..

ــ هل قرارك نهائى ؟

وقف متردّدا ، فقد كان عليه أن يجيب عن السؤال التقليدى ولو بكلمة واحدة ، حاول جاهدا أن يهدئ من ضربات قلبه المتلاحقة .. ثم تنفس بعمق ، وسيطر على انفعالاته لعدّة ثوان ..

قال بصوت هامس مرتعش :

ــ أجل ..

استمر الباب مغلقا ، وأخذت عين إلكترونية متألّقة باللون الأخضر ، مثبّتة فى طرفه الأعلى ، ترقب كل حركة يقوم بها ..

كان يتمنّى فى قرارة نفسه أن يهرب بعيدا عن هذا المبنى الكئيب الذى يطلق عليه (بيت الموت) ، ولكن الحياة أصبحت لا تحتمل ، وكل هذه الآلات بمختلف أنواعها واستخداماتها تسيطر تماما على كل نواحى الحياة فى القرن الحادى والعشرين .. لقد أصبح العالم عالم آلات صماء ، لم يعُد للعواطف والأحاسيس البشرية أى مكان فى عالم اليوم ..

ومنذ أن مات ابنه الوحيد فى أثناء إجراء تجربة على سلاح جديد يستخدم أشعة اللّيزر ، فى إطار المناورات على حروب الفضاء ، وهو يكره الآلات ، والحروب ، والحياة ..

فتح الباب ببطء شديد ، دون أدنى صوت ..

تردّد للحظات ثم دخل بخطوات متثاقلة إلى بيت الموْت .. أغلق الباب من خلفه ، كان من الصعب تحديد أبعاد الغرفة المضيئة التى أصبح فى منتصفها ، فقد رآها لانهائية المساحة ، وهذا التأثير أحدثته مئات المرايا المثبتة فوق كل الجدران ، وعلى السقف والأرضية ، وأصبح الأمر كله يبدو ككابوس قاس ، وتأكد لديه بأنه حتى الزمان ، توقّف ..

نظر إلى المرايا ، فشاهد صورته تنعكس إليه بآلاف الأشكال من مختلف الزوايا ، وبأوضاع متباينة .. شعر بأنه وحيد مع نفسه ، وحدة مخيفة ، مستحيلة ..

كانت كل صورة تنعكس إليه من المرايا تسلبه لحظة من لحظات حياته ، وتنتزع منه آماله وأحلامه ، ولكن لم يعُد فى أعماقه أى إحساس بالخوف أو الأسى ، واستطاع بالهدوء واللامبالاة التغلّب على الشعور المفاجئ بالفراغ والوحدة

تحرّك فى بطء ، كأنه يسير فى حلم ، إلى مقعد وثير بأحد أركان الغرفة ، وتهالك فوقه .. فشعر بالراحة .. نظر أمامه .. كان يواجهه كمبيوتر معدنى صغير أحمر اللون ، مكتوب على شاشته الخضراء بحروف كبيرة متألّقة : (الاعتراف الأخير) ..

مرّت عدّة ثوان ، سمع بعدها صوتا آليًا أجش ينطلق من الكمبيوتر

— من أنت ؟.

خُيِّل إليه أن الصوت مألوف . نظر حوله فى حيْرة ليعرف مصدره .. لقد خدعته أحاسيسه . فالغرفة خالية تماما . إلا من الكمبيوتر . وآلاف الصور التى تنعكس من المرايا التى تغطى كل المساحات . والمقعد الذى يجلس عليه ..

استند إلى ظهر مقعده . وأغمض عينيه . وغرق فى أعماق ذاكرته .. تلاشت المرئيات من أمامه . ورأى نفسه وهو ما يزال طفلا يجرى فى الحقول الخضراء تحت سماء زرقاء صافية كانت الحياة جميلة فى ذلك الوقت . قبل أن تسيطر الآلات ..

— من أنت ؟.

كان خياله بعيدا . يستعيد ذكريات الماضى .. أمّه فى وسط الحقل الأخضر . تفتح ذراعيها له وهو يأتى راكضا من بعيد .. وصل إليها ودفن رأسه فى ملابسها الدافئة . ابتسمت له وتحدّثت إليه . إنه لا يذكر كلماتها بالتحديد . ولكنه على يقين أن الكلمات كانت رقيقة مُفعمة بالحنو ..

— من .. أنت ؟.

بذل جهدا خارقا حتى يبعد الذكريات عن ذهنه المكدود . فذابت الأشباح التى تشده للماضى .. واختفت . وضاعت طفولته فى هُوّة الزمان السحيقة ..

أجاب بصوت هامس . كأنه يتحدّث لنفسه :

— أنا رقم ٨٩١٥ (مصنف ١) .. عضو اتحاد علماء الإلكترونيات ..

صمت الكمبيوتر للحظات . ربما ليراجع ذاكرته الإلكترونية . ويتأكد من المعلومات .. عاد الصوت الأجش الآلى العميق . يقول بتلك النبرة المميّزة المألوفة . القاسية :

— هل ودّعت عائلتك وأصدقاءك ؟.

لم يستطع أن يجيب .. ارتعشت شفتاه . وشعر باختناق مباغت خفض عينيه وابتلع ريقه :

— ليست لى عائلة ..

— وأصدقاءك ؟.

تنهّد :

فقدت أصدقائى منذ زمن طويل ..

صمت الكمبيوتر للحظات :

— إذن .. من أبلغ عن موتك ؟.

أجاب بصوت مُفعم بالسُخرية على الرغم منه

— بلّغ رئيس علماء الإلكترونيات .. سيكون سعيدا بهذا الخبر فقد سببت له الكثير من المتاعب فى الفترة الأخيرة ..

— أتريد أن تقول شيئا آخر ؟.

تردّد قليلا . ثم قال بلا اكتراث :

— أنا الذى صممت أجهزتك . وكذلك كل بيت الموت

ساد صمت ثقيل فرض نفسه :

ــ أتقول الحقيقة ؟.

ــ لا أحد يكذب فى الاعتراف الأخير ..

قال الكمبيوتر بسرعة مؤكدا :

ــ أحيانا يكذبون .

ــ ولكنى أقول الحقيقة ، أنا رقم ٨٩١٥ (مصنف ١) ، قد صممت بيت الموت ..

أحس فجأة بالاغتراب ، وبأنه لا ينتمى إلى هذا المكان المروّع .

ــ إذن أنت تعرف ما الذى ينتظرك ؟

ــ أجل ..

قال الكمبيوتر فى تحدٍّ :

ــ أخبرنى ..

ابتسم فى تهكّم ، الكمبيوتر يختبر معلوماته :

ــ بعد انتهاء الاعتراف الأخير ، تفتح الباب الذى يفضى إلى الدرج اثنتين وأربعين درجة ، إحداها عليها شحنة كهربائية صاعقة ، ثم ينتهى كل شىء فى ثوانٍ ..

ــ فوق أى درجة ؟..

ــ أنت تغيرها كل مرّة ..

صمت الكمبيوتر قليلا ، ثم قال :

ــ هل ارتكبت آثامًا فى حياتك ؟.

أجاب بسرعة :

ــ أكبر خطيئة أننى صممت بيت الموت ؟.

ــ ماذا ؟! إننى لا أستطيع أن أفهمك ، لقد أصابنى الملل .. كل عالم إلكترونيات يأتى إلى بيت الموت يمثل مشكلة لى ، وبسببهم فقدت اثنتين من خلايا وحدة اتخاذ الرأى فى أجهزتى ..

ــ لن تفهم أبدًا ..

ــ حقًا إن ذكائى صناعى ، ولكنى أريد أن أفهم ..

أحسّ بغضب مفاجئ ، يعصف بكل جسمه :

ــ أيها الكمبيوتر الغبىّ .. ماذا تريد أن تفهم ؟. الحياة التى هى فوق كل منطق .. الحب والكراهية ، والسعادة والألم .. أيمكن وضع هذه المشاعر الإنسانية فى معادلات رياضية ، وبرامج ، ليفهمها الكمبيوتر ؟.

ــ هل جعلت الناس أكثر سعادة بتصميمك لبيت الموت ؟.

بُوغت تمامًا ، وفكر قليلًا ، ثم قال فى بطء :

ــ فى البداية صمّمت بيت الموت لهذا الغرض .. ولكن الأمور تغيّرت ، وأصبح بيت الموت رمزًا للهزيمة .. كما أنه أصاب الإرادة بالشلل ، وسلب القدرة على الصراع من أجل البحث عن معنى الحياة ..

صمت للحظات ثم أكمل :

ــ لم يجلب الحرية للحياة ، بل للموت ..

ساد صمت ثقيل :

ــ أتريد مشروبًا منعشًا ؟.

وفى ثوانٍ ، كان كوب العصير على منضدة ظهرت فجأة أمامه ، أخذ يشرب عصير الفواكه المثلج ببطء ، ويتذكر تلك المرأة العجوز التى

استوقفته يومًا ، وهو فى طريقه إلى مختبر الإلكترونيات .. لمست يده وسألته بصوت ضعيف خافت :

ـــ أخبرنى .. هل يشعر الإنسان بالخوف هناك ؟

لم يفهم السؤال :

ـــ ماذا ؟.

ـــ أقصد .. فى بيت الموت ..

حاول أن يبتعد عنها ، ولكنها تعلّقت بملابسه فى يأس ، وتطلعت إليه بعينين رماديتين حزينتين تخوطهما التجاعيد ، وتحدثت بسرعة :

ـــ ذهب ابنى إلى بيت الموت .. هل تألم ؟..

أرجوك اخبرنى .. هل شعر بالألم ؟..

لم يستطع أن يسمع المزيد ، فاندفع بعيدًا ، ومرّة أخرى ذابت الأشباح فى ضباب السنين المتكاثف ..

انتهى من شرب عصير الفواكه ، ووضع الكوب بعناية شديدة على المنضدة التى اختفت فجأة ، كما ظهرت ..

ردّد بصوت هامس ، مُفعَم بالحزن :

ـــ حان وقت النهاية !.

قال الكمبيوتر بصوته الأجش المألوف :

ـــ ما يزال أمامك أربع دقائق ..

قال لنفسه :

ـــ يمكن أن ينتظر فى الموت لعدّة دقائق أخرى .. فالأبدية قادمة لا ريب فيها ..

ـــ هل تتعجل الموت ؟.

نظر إلى الكمبيوتر فى تحدٍّ سافر .. واتسعت عيناه فى غضب ..

ـــ بل أتعجل تدميرك ..

ـــ تدمرنى !

ـــ أنسيت !.. أنا الذى صمّمتك ..

مرّت ثوانٍ ..

ولكنك لا تملك أسلحة ..

ابتسم فى تهكّم ، وقال فى هدوء شديد ، وبثقة ، وهو ينهض من مقعده :

ـــ ثبّت مجموعة من القنابل البلاستيكية الدقيقة فى أجزاء متفرّقة من جسمى .. سوف تنفجر بمجرّد أن ألمس الشحنة الكهربائية الصاعقة فوق الدّرج .. وهكذا يفنى بيت الموت ..

ـــ لن أدعك تصل للدرج ..

قال بسخرية بالغة :

ـــ كل شخص يأتى إلى داخل بيت الموت ، يجب أن ينزل الدرج . ولا تستطيع أن تمنعه ..

اقترب من الكمبيوتر ، وقال بصوت مرتفع :

— إننى مستعد ..

تباعدت المرايا فى الجهة المقابلة ، وظهر ممرّ ضيّق مضىء ، ينتهى ببداية الدرج .. تحرّك ببطء شديد نحو الممر .. وقال الكمبيوتر بصوت بدا وكأنه مُفْعَم بالحزن :

— هى النهاية لى ولك .. وداعًا ..

استدار لينظر إلى الكمبيوتر للمرّة الأخيرة ، ورفع يده ليلوّح بها ، فردّت عليه آلاف من صوره التى تنعكس على كل المرايا ، وبدت له فى تلك اللحظات ، وكأن لا نهاية لها ..

* * *

روايات مصرية للجيب

سلسلة نوڤا للخيال العلمى

الرحيل إلى كوكب غامض

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الحرب العالمية الثالثة ..

كان الدكتور (م) وحيدا فى المخبأ . عندما انفجرت أول قنبلة هيدروجينية فى المدينة القريبة .. أضاء غرفة القبو فى الحال نوع من الوهج لم يره من قبل ، وأخذت الأرضية تهتز وتعلو ، وبدأ يصدر صوت غريب خارق للطبيعة ..

لم يستطع أن يحكم كم يبعد الانفجار ، وقد بدا له أنه يبعد من داخله . وأن الهواء نفسه ممزق وغارق فى الصوت الذى استمر بلا نهاية .. كان الصوت ينبض نبضا غريبا ، أعلى من أى صوت يتخيله ، أقوى من أى مصدر عرفه ، مزيج من الأصوات التى يتصورها العقل البشرى للتدمير والهلاك . ويصاحبها خليط من الصرخات المروّعة للمتحضرين ، والهواء الممزق وصوت سقوط الصلب والخشب ، وانهيار المبانى وتكسر الزجاج ، والرائحة النافذة التى لا تحتمل للهواء الساخن ..

كان ينتظر أن يدفع به الانفجار الهائل فى أى لحظة إلى الظلام ، ولكن طالما أن ذهنه وحواسه لا تزال تسجل الحدث الرهيب ، فقد كان لا يزال على قيد الحياة .. لقد شعر بهذا ولكنه لم يفكر فيه ، وإنما فهمه بغريزته أن هذه هى الكارثة النهائية ، الفناء التام ..

أصبح الوهج أخف حدة ، ولكن لم يكن له لون مميز يمكن أن يتعرّفه من خلال جفونه المغلقة .. ربما كان لونه أخضر أو شيئا أقرب إلى هذا اللون ..

كان يبدو كخليط من النار المدمّرة الهائلة ، والطاقة المروّعة المنطلقة من نجم متفجر .. سوبرنوفا ..

كان أسوأ ما فى الأمر اهتزاز الأرض نفسها من تحته ، إلى الأمام والخلف مما يبعث عن الغثيان .. حاول — كما يفعل الحيوان عندما يواجه كارثة — أن ينكمش على نفسه ، ويحتمى بالجدار القريب بالرغم أنه كان يتوقع أن ينهار عليه فى أيّة لحظة ..

ظل الرأس ينظر أن يأخذه الموت ، ولكن أخذ يدرك رُويْدا أنه طالما لم يسحق حتى الآن ، فإن الأمل يتجدّد فى بقائه على قيد الحياة ..

فجأة سمع صوت إعصار مخيف حول المكان الذى لابدّ أنه أصبح خرابا ، يصفر فى كل ما هو قائم من ألواح الصلب وأجزاء المبانى المهدمة ، وجاءه صوت الإعصار وهو فى المخبأ ، وسرعان ما أصبح يميزه عن الأصوات التى كان يسمعها وتكاد تفقده حاسة السمع ، وبخاصة أصوات النار ، لا أصوات المحتضرين ، لا أصوات آدمية على الإطلاق ، لا شىء يدل على الحياة ، وكأن العالم قد انتهى ..

— ١ —

هبطت أول سفينة فضاء فى حقل محروث خارج المدينة المهدمة ، فيما وراء اللافتات التى تحذر من الإشعاع الذرّى .. كانت دائرية الشكل من معدن غريب غير مألوف ، رمادية اللون بخطوط سوداء ، وعندما كانت تقترب من الأرض اندفع لهب من أسفلها ربما ليتحكم فى هبوطها . واستقرت على الأرض كأنها نبات فطرى عملاق ، وسرى فى الهواء رائحة تراب يحترق ..

كان الدكتور (م) يعلم أن الملايين قد ماتوا منذ أن خرج من المحاً الذرّى سليمًا بمعجزة ، وما يزال الآلاف يموتون عندما يتعمق الإشعاع فى عظامهم ولحمهم ، وشعر بقبضة الموت قريبة جدا ، إن لم يكن اليوم فغدا ..

نظر إلى سفينة الفضاء الغريبة بشىء قليل من الفضول ، وتساءل من أين أتت ؟.. وما الذى يمكن أن تقدمه لتخفف من وقع الكارثة التى أصابت العالم من جرّاء الحرب الذرّية ..

كانت سفينة الفضاء كفيلة بأن تبقى فى هذا الحقل منسية شهورًا ، لولا أن جاء بعض الناجين من الموت وحملوا الأنباء معهم إلى الآخرين فى مكان قريب ، وهكذا انتشر الخبر ...

تجمع العشرات من الآدميين المذهولين ، الذين لا يصدّقون شيئًا مما حدث للعالم ، أخذوا يتطلعون إلى سفينة الفضاء الغريبة التى ربما تحمل أملا ، أو ربما مزيدًا من الهلاك ..

فجأة .. حدثت قرقعة عالية من مكان ما داخل السفينة ، وظهرت فتحة ضيقة فى الجانب المواجه للمشاهدين ، وانزلق لوح من مادة

كالصلب ، وسرعان ما اتسعت الفتحة لتسمح بمرور إنسان إلى السفينة ، أو الخروج منها ..

كان الظلام مخيما فى الداخل ، ولم يخرج أحد ، كما لم يقترب منها أى من البشر لحظة واحدة ، بل لقد تراجعوا مسافة صغيرة من سفينة الفضاء ..

دوّى صوت أجش ذو نبرة غريبة من داخل السفينة :

— يا أهل الأرض .. لقد اجتزتم حربًا مدمّرة ، وقد بقى عدد قليل منكم على قيد الحياة ، والأمل ضعيف لأى واحد منكم ؛ لأن الإشعاع الذرّى ينتشر على وجه كوكبكم بأسره .. ولقد جاءت سفينة الفضاء هذه لتدعو أولئك الذين لم يصبهم الإشعاع لكى يهاجروا إلى الكوكب الذى تطلقون عليه الزهرة ..

نظر المشاهدون الذين يرتدون الثياب الرّثّة ، بعيونهم التى حرمت طويلًا من النوم إلى مصدر الصوت وسرت فى الهواء رعدة :

— لكم أن تختاروا واحدا من بينكم ليمثلكم ، وإن لم يكن قد وقع فريسة للإشعاع ، فيسمح له بدخول سفينتنا ، ومعرفة المزيد عن هذه الخطة ..

انقطع الصوت بفرقعة واضحة ، وحدث هرج ومرج بين الرجال والنساء الذين يلتفون حول سفينة الفضاء ، وهم لا يدرون أى قرار يتخذون ، وحملق كل منهم فى وجه الآخر فى خوف ورُعب ، من عسى أن يكون منهم غير مريض بالإشعاع ..

كان الشك يخيّم على كل وجه ، وكان الفكر السائد أنه من الأفضل ألا يعرف الإنسان إذا كان مريضا ، أو سليمًا ..

وانتهى البحث الذاتى بموافقة جماعية ، واتجهت النظرات إلى

الدكتور (م) الذى كان يقف بمعزل عنهم .. كان الدكتور (م) عالمًا فى الإلكترونيات ، وكان أحد القلائل الذين هربوا من موت محقق لوجوده فى مصحٍّ جبلى عال به مخبأ ذرّىّ ، فرأى السماء تتحوّل غاضبة إلى اللون الأحمر القانى ، وراقب عمود الدُّخان الذى كان يبدو كسيف يفتك بالحياة ..

راقب الدكتور (م) الوجوه التى التفتت إليه ، والغضب المضطرم الذى كانت تكبح جماحه تلك المعرفة بأنه لا توجد عقوبة تلائم هذه الجريمة التى حدثت للعالم ، وتحت ثقل هذه النظرات وإحساسه بأنه الوحيد الذى يجب أن يتوجه إلى سفينة الفضاء ، معتزلًا بعدالة نظرات الذين انتخبوه ، وراحت نظراته تنتقل بسرعة من وجه إلى آخر ، خلال تلك الدقائق الطويلة .

توقف عند باب سفينة الفضاء ، وقد أصيب جسمه بتيبُّس غريب ، كأنما يستند على حاجز ثم استقام كتفاه النحيلان ، وبقى فى مكانه دقيقة كاملة لا يتحرك من تأثير الصدمة ، وكف ذهنه عن أى تفكير ..

فجأة أعلن الصوت الأجش الغريب النبرات الصادر من سفينة الفضاء :

ــ هذا الرجل خالٍ من المرض الإشعاعى ، ويمكنه أن يدخل ..

تحرك الدكتور (م) فوق اللوح الرمادى الممتد من السفينة إلى الأرض ، ثم اجتاز الفتحة ، وسرعان ما احتوته الظُّلمة داخل سفينة الفضاء القادمة من كوكب الزهرة ..

ــ ٢ ــ

اهتزت سفينة الفضاء بعُنف ، وإن لم يصدر عنها أى صوت ، ثم ارتفعت بضع أمتار على لهب أخضر مشوب باللون الأزرق الداكن ، وظلت معلقة

فى الهواء لدقائق ، ثم طال عمود اللهب وهو يدفع سفينة الفضاء فى جلال صَوْبَ السماء ، وانفصلت النار عن سطح الأرض ، وسرعان ما اندفعت سفينة الفضاء بعيدًا عن النظر بسرعة هائلة ، تاركة رماد التربة المحترقة كدليل على زيارتها للكرة الأرضية ..

قال الدكتور (م) بعد عودته ، والتفاف الآخرين حوله :

ــ هذه السفينة خالية من الركاب ، لكن هناك تسجيل فى مكان ما بها ، روى لى كل شىء .. ستمنح فرصة أخرى للإنسان ، فقط لأولئك الذين لم يصابوا بالإشعاع بعد ..

بدت اللهفة على وجه المستمعين ، الذين انتظروا بصبر .. هذا الجمع الحاشد من الرجال والنساء والأطفال ، الذين شاهدوا الموت طويلًا وكأنهم لم يعرفوا معنى الحياة أبدًا :

ــ هذه السفينة قادمة من كوكب الزهرة ، الكوكب الغامض كما يطلق عليه علماء الفضاء ؛ لأنه محاط بغلاف غازى سميك لا يظهر شيئًا من سطحه ، إنه الكوكب الثانى من الشمس بعد كوكب عطارد ، ولست أدرى مِمَّ شُيِّدت هذه السفينة ، أما الكلام كما نعرفه فلابدَّ أنه مجهول لدى زائرينا ..

سألت إحدى الفتيات التى ترتدى ثوبًا أسود ممزقًا ، وتتألق عينها الزرقاوان ، ويتوهَّج شعرها الأحمر القانى :

ــ ولكن التسجيل ؟.

ابتسم الدكتور (م) ونظر للجميع :

ــ التسجيل الذى سمعناه كلنا ، وتلك القطع التى أُديرت لى ، قد تم

تركيبها معًا من كلمات سجلت هنا على الأرض ، وتكاد أن تكون كل كلمة قد نطق بها صوت مختلف ، ولابدَّ أنهم سجلوا أحاديث كثيرة فوق سطح الأرض بوسيلة ما ، ثم اختاروا منها الكلمات المطلوبة ، وهذا يدل على أنهم لا يتحدَّثون لغة ما ، وربما لأن ليست لهم حبال صوتية ، ولكنهم على أى حال غاية فى الذكاء ..

تريَّث الدكتور (م) دقيقة ، وأخذ يفكر لنفسه ، هذه السفينة تُدار من بعيد ، إنها تحقيق لحلم طالما راود الإنسان ببناء مثل هذه السفينة .. ولعلها تدار باستخدام وقود متطوِّر للغاية ، وأن سرعتها هائلة تقرب من سرعة الضوء أى ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر فى الثانية ؛ لأن جهاز التسجيل قال إن الرحلة إلى كوكب الزهرة تستغرق عدة ساعات ..

وأدرك الدكتور (م) أنه لم يكن بين مستمعيه من يحفل بالطريقة التى تُدار بها سفينة الفضاء ، أو سرعتها ، أو نوع وقودها ..

استمر الدكتور (م) يتكلم فى بطء ، وتدور نظراته بين الحاضرين :

ــ كل أهل الأرض الأصحاء .. مدعوُّون للذهاب إلى كوكب الزهرة ، سيعطون لنا نصف الكوكب ، ويجب أن نأخذ معنا حيواناتنا وبذور نباتاتنا ، بشرط أن تكون كلها غير مصابة بالإشعاع ، وقد بنيت السفينة بحيث تكشف السليم من المصاب ، وسيكون من المستحيل على أى إنسان أو حيوان أو نبات أن يدخل فيها ما لم يكن سليمًا ، فلن يسمحوا بتأصل المرض الإشعاعى الجديد ..

سأله رجل طويل القامة ،، أسمر الوجه ، يقف فى نهاية الحشد :

ــ ولكن هل الحياة ملائمة للبشر فوق كوكب الزهرة ؟.

ردَّ عليه الدكتور (م) مؤكدًا :

ــ هناك حجرة خاصة فى سفينة الفضاء .. يطلقون عليها (مختبر التغيير) ، وفيه يمكن أن يتأقلم الإنسان على جو كوكب الزهرة .. أما التربة فهى غنية ولن تحتاج إلى سماد لسنوات طويلة ، ونصف الكوكب المواجه للأرض سيكون لنا ، نزرعه ونديره كما نريد ، ولكن يجب ألا نأخذ معنا أى مهمات أو مواد ضرورية لصنع أسلحة حربية .. وقد قال لى جهاز التسجيل إن أيَّة محاولة لصنع أسلحة مدمِّرة على كوكب الزهرة ستأتى بالموت الفورى لمن يصنعها ، وفيما عدا هذا لن يتدخَّل الإنسان فى حياتنا ..

انصرف الجمع واحدًا واحدًا ، أو اثنين اثنين ، بينما كانت الشمس تميل إلى الغروب .. لم تلق الكلمات ، ولا قطعت الوعود ، ولم يناقش الأمر ، بل إنه عند الانصراف لم ينظر أى شخص إلى الآخر ..

اهتزت أرضية سفينة الفضاء تحت قدميه ، وكأن هناك اندفاعًا سريعًا من قوة هائلة لا صوت لها .. أدرك الدكتور (م) أن الرحلة إلى كوكب الزهرة قد بدأت .. كان جسمه ثقيلًا وانتابه شعور بالضغط الشديد جاء معه بغثيان ، وعرف ببطء أنه يحدث تعديل فى داخل سفينة الفضاء ، فقد خفَّ الضغط وعادت الجاذبية إلى طبيعتها .. توقف الطنين الذى كان فى أذنيه ، وزال ما كان يشعر فى معدته من ألم ، ثم سرعان ما فقد الإحساس بأيَّة حركة على الإطلاق ، وتقدم إلى الأمام ليزداد معرفة بالآخرين ..

كان هناك من المهن والحرف بقدر عدد الوجوه المتباينة الأشكال والأنواع ، والبعض كان على وجوههم شعور بالذنب أخذ ينقشع ببطء ، أما البعض الآخر فما زالت سحب الحَيْرة والخوف تغشى عيونهم ، وبرغم هذا فقد كان يلوح فى الأفق دائمًا بارقة أمل جديد ..

لقد كانت أى محاولة لفحص أجهزة سفينة الفضاء عن كثب تبوء بفشل ذريع ؛ لأنها كلها محاطة بحزام خفى من الطاقة يمنع اقتراب أى إنسان منها ..

شعر ركاب سفينة الفضاء أنها تبطئ وبعد دقائق أدركوا أنها قد هبطت ولم يفتح الباب فى الحال ، ولكنهم لم ينتظروا طويلًا ، إذ هتف صوت بتلك الرنة الغريبة عند كل كلمة تقريبًا :

ـــ أنتم الآن على الكوكب الذى تسمُّونه الزهرة .. أنتم أول من يصل ، أما السفن الأخرى والتى هبطت فى أماكن مختلفة من كوكبكم المدمر فستصل تباعًا ، وسيتسع لكم الوقت لوضع خططكم المبدئية ، وعندما تغادرون السفينة ستلاحظون أن هذا النصف من الكوكب قد أخلى تمامًا من كل نبات محلى ، والمطلوب منكم ألا تمسوها وهى لن تتهاجن مع نباتاتكم ، أما فيما عدا هذا فأنتم على حريتكم .. يا أهل الأرض ، يمكنكم أن تتركوا السفينة الآن ..

انفتح الباب بصوت مكتوم ، وأسرع الركاب فى الخروج تؤاقين ليروا الكوكب الذى سيصبح بديلًا عن عالمهم المحطَّم ، وبالقرب من مكان هبوطهم كان هناك صفان من الأشجار تفصل بينهما مسافة توازى عدة أمتار ، كانت الأشجار عالية شامخة أشبه بالشجر العملاق فوق الكرة الأرضية .. أما أوراقها فكانت وردية اللون ، عريضة بيضاوية الشكل ، مجعدة عند أطرافها ، وكانت تتدلى من الغصون صَوْب سطح كوكب الزهرة .. ومن كل ورقة كان يبدو طرفان يشبهان الهوائى ، ويتأرجح لونهما من الوردى الداكن عند القاعدة إلى الأرجوانى الزاهى عند أطرافها ، وكانت تتحرَّك فى كل الاتجاهات بشكل غريب غير مألوف ..

استيقظ أهل الأرض مع شروق الشمس فى صباح اليوم التالى ، وكانت هناك صعوبة فى وصول أشعة الشمس إلى سطح الكوكب بسبب تلك الغيوم

الكثيفة التى تغلفه .. أضرمت النساء نيرانا صغيرة بين الخيام ، وانشغلن فى إعداد وجبة الصباح ..

وفى اليوم التالى بدأت الأحداث فوق هذا الكوكب الغامض ، كان الظلام قد حلَّ أو كاد ، عندما تم العثور على رجل وامرأة فاقدى الوعى على حدود الغابة القريبة .. وعندما أسعفا لم يذكرا سوى أنه كان هناك شبه حاجز يحاول منعهما من دخول الغابة ، وقد وصفته المرأة بأنه كالريح القوية وإن لم يكن ثمَّة ريح تهب ، ولكنهما شقَّا طريقهما ضده داخل الأدغال الغريبة ..

وكان هذا آخر ما تذكراه ، وكان كل منهما تحت تأثير أن شيئا ما ، ضربهما على رأسيهما بعُنف ، ساعدوهما على بلوغ خيمتهما وهما مصابان بكثير من الرضوض ، وشبه انهيار عصبى .. وسرعان ما انتشرت قصة تجربتهما المثيرة ، وتساءل الجميع عن السرّ ، وتناقشوا كثيرا ، ولم يقترب أحد من الغابة القريبة فى ذلك اليوم ..

وفى نفس هذا المساء ، تحدث الصوت الغريب إلى القادمين الجُدد . وكان صوتًا أشبه بالصوت الذى سمعه ركاب سفينة الفضاء الأولى التى هبطت على كوكب الأرض ، ولكن هذا الصوت بدا وكأنه يذاع من عدة مكبّرات للصوت ، وكانت الرسالة بسيطة :

ـــ يا أهل الأرض .. لقد أرسلنا لكم السفن الفضائية لتأتى بكم من ديارِكم التى انتشر بها المرض ، وكان من المتفق عليه ألا تحاولوا دخول المناطق الأخرى الممنوعة ، ومع هذا فقد حاول بعضكم نقض هذا الاتفاق . فلا تدعوا هذا يحدث مرّة أخرى .. إنكم مدعوُّون غدا لمعرفة كيف صنعت سفن الفضاء ..

وبرغم أنهم حاولوا كثيرًا ، إلا أنه لم تكن وسيلة لمعرفة مصدر الصوت الغامض

جلس الدكتور (م) بجانب فتاة ذات شعر أحمر متوهج ، فوق صخرة عالية والكوكب المجهول يمتد أمامها ، عالم غريب يدور فى فلك حول

الشمس ، شىء مجهول بلا نهاية ، ولم تكشف له النفس البشرية قَطُّ عن أعماق ضعفها وإرهاقها وخوفها من الغد ، كما كشفتها له فى ذلك الوقت .. وفى الأدغال العميقة للاشعور ، عثر على مساحة صغيرة يهيمن عليها العقل المشرق ، استطاع فيها أن يتخلص من أوهامه وآلامه ..

كانت الأشجار والنباتات العملاقة لكوكب الزهرة تمد أطرافها من بعيد ، ترحب بأهل الأرض أو ربما لتحذرهم من خطر ما ، أما الشمس الهائلة فكانت تنحدر نحو الغروب فى جلال مُفعَم بالحزن .. أى حنين يدفع بهما إلى ذلك الكوكب النائى الخافت الزُّرقة ، المعلق فى الفضاء ، كوكب مدمَّر يكاد يخلُو من الحياة .. الأرض .. أى ألم ينبع من أعماقها لما حدث ..

تنهد وقد بدأ الألم يصل إلى تفكيره ، ويعظم تصوراته ، ثم همس :

ــ لقد تركنا ورءنا أمراضنا ، وأفعالنا الشريرة ، وأحقادنا ، وسنبقى هنا نتفاعل مع الخير والشر فى هذا الكوكب الغريب ..

فاضت عيناها فجأة بالضياء ، مزيج من الرَّهبة والكبرياء والخوف من المجهول :

ــ مازلت لا أستطيع أن أتخلص من الصورة البشعة للحياة المدمَّرة فوق الأرض .. المدنية .. الحضارة .. كل شىء انتهى ..

أسرته لدقائق طويلة بعينيها الجميلتين المتألمتين :

ــ لعل شيئًا من التصميم الصامت على الحياة فوق هذا الكوكب .. كان ينمو ويزدهر فى أعماقنا دون أن ندرى ..

كانت تصغى إليه بكل انتباه وقوة استيعاب ، وفى بعض الأحيان كانت عيناها الزرقاوان تتركزان عليه بنظرة مُفْعَمَة بالألفة والود والأمل :

ــ كنا نموت بالأمس بلا أمل ، أما اليوم فالحياة تزخر بأشياء كثيرة ، يجب أن نعيش من أجلها ، ولكن هل ننسى ؟.

أغلقت عينيها الناعمتين ، كأنما قد كساهما بالسحر الغامض ، ذلك السُّكون الذى كمن كثيفًا فى كل مكان فوق هذا الكوكب الغامض ، وارتجفت يداها وهى تقول :

ــ إننى أكره النسيان ، كل ما مرَّ فى حياتى أذكره حتى لو كان مأساة .. كان مصغيًا إليها وهى تتكلم بهدوء عجيب مُفْعَم بإجلال ، وشعر وكأنما نبضات قلبيهما تدقان معًا برتابة ووئام :

ــ ليس فى الدنيا من يبدأ من جديد ، حتى الطفل .. إنه يولد تكملة لسلسلة طويلة قديمة متصلة بأجداده ، ولكننا فوق هذا الكوكب نُولد حقًّا من جديد ..

أخذ يفكر .. ألم يكن غريبًا أن يتحدثا عن هذه التجربة المثيرة التى كانا يمران بها بهذه البساطة ، وكأن الأمر لا يعنيهما ..

أصبحت أصابعها المرتجفة مستقرة هادئة الآن بين يديه ، كعصفور وجد ملاذًا .. اقتربا الواحد من الآخر ، كدفتى باب تنغلقان على الماضى ، على الأحداث المروّعة وتحجبان كل شىء ، إلا المستقبل .. كان مجرد اقترابه منها ، يفجّر فى الظلام ألوان الطيف المتلاحقة الخاطفة ..

نظر إلى عينيها الرائعتين ، وعرف فى هذه اللحظات بأنها قد تنبّأت بذلك الشعور الرائع الذى بدا يلامس أعماقها ، وأعطى هذا المزيد من الدفء إلى يدها وهى تضعها بين يديه .. إن الكلمات التى يهمس بها العشاق فى أوقات كهذه ، تمتلئ بالعواطف المشوهة ، ولكن الصمت وحده هو الذى يمكن أن يعبّر عما يجيش حقًا فى القلوب ..

كان أهل الأرض على موعد ، مع الصوت الغامض ..

— ٦ —

كان المكان الذى حدّده الصوت الغامض ، بعيدًا عن مكان إقامة أهل الأرض ، وجدوا هناك الكثير من النباتات المتسلقة الكثيفة ، تغطيها أوراق سميكة على شكل كئوس ، ويبدو أنها كانت تدخل سطح التُربة فى فترات منتظمة ، لتعود للظهور فوق سطح التربة ، وسرعان ما أدرك المشاهدون أنها كانت تلقى على السطح بمادة سميكة يميل لونها للأحمر ، وفوق هذا المشهد كان عدد من الأشجار يُدلى بغصونه الوردية اللون حتى تصبح فوق تلك المادة ، ثم تنقض عليها سيقان طويلة من نباتات أخرى تحمل زهورًا مربعة الشكل ، وكانت كل ضربة من هذه الزهور هى التى تساعد على دق الكتل ؛ لتصبح صفائح من ذلك المعدن الغريب التى صنعت منه سفن الفضاء ..

وفيما كان الرجال والنساء والأطفال يراقبون ما يحدث فى دهشة بالغة . استخرجت آخر كتلة من المعدن ، وتم تسخينها وتشكيلها ، ثم طرحت جانبًا ، وتوقف الطَّرق وأخمدت النيران ، وعادت الأدغال مرّة أخرى ، جدارًا من النباتات والأشجار الغامضة التى تترنح برقة مع النسيم السارى ، ولولا صفائح المعدن التى تملأ المكان ، لتخيّلوا أن ما رأوه لا يعدُو أن يكون سرابًا ، أو كابوسًا ..

— ٧ —

عقد اجتماع بين بعض الرجال والنساء ، وكانت ثمّة نظرات غاضبة على كثير من الوجوه ، وعلى البعض كان الغضب يمتزج بالخوف من المجهول ، وقال البعض إنه ربما كان سكان كوكب الزهرة غير مرئيّين ..

قال الدكتور (م) عندما احتدمت المناقشات :

— أعتقد أننى حللت مشكلة مضيفينا ..

توقف عن الكلام ، وراح يقلب نظره إلى الآخرين وعاد يقول :

— إن الحياه الذكية التى دعتنا إلى هنا هى ، الحياة النباتية لكوكب الزهرة ..

ردَّ عليه رجل أصلع الشعر ، نحيف الجسم بشكل واضح :

— مستحيل .. هل النباتات قادرة على بناء سفن الفضاء ؟

أجاب الدكتور (م) فى هدوء :

— هل نسيت أننا جميعًا شاهدنا اليوم نباتًا يحفر التربة ، ويستخرج منها المعدن الخام ، ونباتًا ثانيًا يصهره ، وثالثًا يحوّله إلى ألواح ، ورابعًا يستخدم كسندان ، وبعد أن رأينا نباتات اللهب وهى تعمل لا يمكن أن يساورنا أى شك ..

توقّف الدكتور (م) للحظات ، ثم نظر إلى الوجوه المجهدة من حوله ، وعاد يقول :

ـــ أؤكد لكم أن الحياة الذكية المسيطرة على هذا الكوكب ، هى الأشجار والغصون والنباتات ، وما إليها إلى أصغر نبات ، ولابدّ أن هذا هو السبب الذى طلبوا من أجله أن نحضر نباتاتنا ، وألا نلمس النباتات المحلية هنا ..

ـــ أصبت .. يا رجل الأرض ..

نظروا من النافذة ، ولاحظوا أن الهوائيات التى كانت على أوراق أقرب شجرة إليهم كانت كلها منحنية صوْب خيمتهم ، برغم أن الرياح كانت تهب فى اتجاه مضاد ..

عاد الصوت الغريب يقول بتلك النبرة الغريبة :

ـــ لقد ظللنا الحياة المسيطرة على هذا الكوكب آلافًا عديدة من السنوات بحساب زمنكم ، ومنذ زمن طويل كنّا نعلم بوجود حياة ذكية على الكوكب الثالث من الشمس كما تطلقون عليها ، ذلك أننا كنّا نستطيع أن نسمع أفكارًا بين حين وآخر ، وكنّا نعرف أن علومكم أقل تقدمًا من علومنا ..

سألت الفتاة ذات الشعر الأحمر ، وقد فاض فضولها :

ـــ هل بنيتم سفن الفضاء ؟.

ـــ أجل .. وكنا نراقبكم منذ فترة طويلة ، وكنتم تطلقون على سفننا (الأطباق الطائرة) .

عادت تسأل فى إصرار :

ـــ كيف زوّدتم سفينة الفضاء بهذه القوة الدافعة الهائلة ؟.

ـــ إنها نباتات اللهب .. إن لها قوة أشد من أى وقود معروف لديكم ..

وبدأ صوت الدكتور محتفظًا بهدوئه ، وهو يسأل بدوره :

ـــ كيف عرفتم أننا فى حاجة إلى معونة ؟.

ـــ شعرنا بأمواج القوة التى تنبعث من الدمار الذى تطلقون عليه الانفجار الذرّى ، وكانت نفس هذه الموجات قد أتت منذ زمن طويل من كواكب أخرى ، وكانت الأفكار تموت بالتدريج على تلك الكواكب .. وكنا نعلم أن الحياة الذكية قد ماتت عليها ، كما حدث لكوكب (فايتون) الذى كان يقع بين كوكب المريخ والمشترى ..

سأل رجل عجوز :

ـــ لماذا أنقذتمونا ؟.

كان هناك تردُّد واضح ، ثم جاء الصوت الغريب مرَّة أخرى :

ـــ لقد ماتت الحياة الحيوانية على كوكبنا ؛ لأننا لم نستطع طبعًا أن نسمح لها بأن تتغذى علينا ، ومع ذلك فإننا نحتاج إلى نوع من الحياة الحيوانية ؛ لنحتفظ برصيد من الأكسوجين وثانى أكسيد الكربون الضروريان لحياتنا ، وكان من الواضح أنكم مثاليون لغرضنا ..

أخذ الرجال والنساء ينظرون إلى بعضهم فى صمت بضع دقائق ، وهم يفكرون فيما تلقوا من معلومات ..

قال الدكتور (م) موجهًا حديثه للآخرين :

ـــ أعلم أنه من الصعب أن يصدق الإنسان هذا ، ولكن الأمر ليس غريبًا جدًّا .. فعلى الأرض كانت الحدود متقاربة بين الحيوان والنبات ، كما يدل على ذلك التشابه بين حياتنا الحيوانية والنباتية الوحيدة الخلية ..

عاد الصوت الغريب يدوّى :

— فكروا يا أهل الأرض .. إنه من المنطقى أن تكون النباتات هى التى تسيطر على كوكبكم ، فنحن شكل الحياة الوحيدة غير المدمّر ، فيمكننا أن نبنى الكربوهيدرات والبروتينات من أملاح غير عضوية ، فلا تدعنا الحاجة إلى إتلاف شىء .. أيمكنكم أن تفعلوا هذا يا أهل الأرض ..

ران السكون للحظات ، ثم التفت الدكتور (م) إلى الآخرين وقال :

— أعتقد أنهم على حقّ من وجهة ما ، ولكن المهم أن نعيش حياتنا على كوكب غريب ، وأن نُكيّف أنفسنا بحيث نتلاءم مع الظروف هنا .. ويجب ألا ننسى أن أحد الأسباب التى أدت إلى تدمير العالم ، كان الاعتقاد بأن بعض البشر — هل نقول بعض أشكال الحياة — كانوا أقل من البعض الآخر .. لا .. يجب ألا يحدث هذا ثانية ، هل أتكلم نيابة عنكم جميعًا ؟.

نظر الرجال والنساء إلى بعضهم ، ثم أومئوا برءُوسهم بالموافقة ..

التفت الدكتور (م) إلى النافذة ، وقد بدت عليه الحيْرة والتردُّد :

— لا أعرف الطريقة المثلى لمخاطبة نبات ذكى ، ولكن لكم أن تقولوا لباقى مواطنيكم بأننا نحن أهل الأرض ، على استعداد للتعاون معكم ، وتحقيق السلام بيننا ..

— ونحن أيضًا يا أهل الأرض ، نرحب بكم فوق كوكبنا ..

توقف الصوت الغريب ، ونظر الدكتور (م) بشوق إلى حبيبته ذات الشعر الأحمر ، وفى الخارج بدأ المطر يهطل مدرارًا ، راح يضرب سطح كوكب الزهرة بشدة ، قبل أن يغوص إلى مستوى الجذور العطشى ..

* * *

كان منظر البئر غريبًا ، فى تلك الصحراء ذات الرمال الحمراء الوردية ، وفُوَّهات البراكين ، والسماء الأرجوانية ، والشمس الدقيقة فوق كوكب المريخ ..

كانت حافة البئر تعلو حوالى متر ونصف المتر فوق الرمال ، تتخذ الشكل الدائرى ، وكان أكثر ما يميِّزه تلك الأحجار الغريبة التى بنى منها ، أنها كانت تشع ضوءًا أزرق خافتًا ..

قال رائد الفضاء الأول (هاشم) فى دهشة :

ـــ يبدو هذا البئر من صنع الإنسان .

ردَّ عليه رائد الفضاء الثانى (ياسر) ، وهو يبتسم :

ـــ فقط لأنه يبدو مألوفًا لك ، لقد اكتشفنا حياة ذكية فوق سطح المريخ ..

قال (هاشم) :

ـــ يجب أن نخبر مركز المتابعة الأرضى بهذا الاكتشاف ..

ومرَّت فترة طويلة من التأمل قبل أن يتحرَّكا إلى سفينة الفضاء للاتصال بكوكب الأرض ..

ـــ ١ ـــ

عادا مرَّة أخرى إلى البئر ، بعد أن وضعا عليه علمًا حتى لا يفقدا أثره ، لقد تلقيا تعليمات من مركز المتابعة بإحضار عينة من حجارة ذلك البئر الغريب .. انحنيا فوق الحافة ، ينظران إلى ذلك الظلام الدامس الذى يغلف عمق البئر ..

قال (ياسر) :

ـــ دَعنا نقيس عمقه أولًا ..

أمسك (هاشم) بحبل من الألياف الصناعية ينتهى بدلو صغير ، وأنزله ببطء شديد إلى داخل البئر .. وفى الصمت المطبق لصحراء المريخ ، انتظرا وهما ينصتان ، كاد أن ينتهى الحبل عندما اصطدم الدلو بشىء ما سائل لزج ، على بعد حوالى ٢٥ مترًا .. رفع (هاشم) الحبل فى حرص .. كان الدلو نصف ممتلئ ، بسائل أسود يتصاعد منه البخار ..

قال (ياسر) :

ـــ يجب أن أقوم بتحليل هذا السائل .

وذهب إلى سفينة الفضاء راكبًا المركبة الزاحفة التى صممت خصِّيصًا لتلائم طبيعة كوكب المريخ ، تاركًا (هاشم) يجرى مزيدًا من الأبحاث ، أمسك (هاشم) بأحد الحجارة التى تكوِّن البئر ، وتناول مطرقة من الصلب كان يحتفظ بها على جانب رداء الفضاء الخاص به ، وحاول أن يكسر الحجر بأربع محاولات ولكن دون جدوى ، فقد ارتدت المطرقة عاجزة عن مجرد خدش ذلك الحجر ، كان متأكِّدًا أن هذه المطرقة مصنوعة من أقوى أنواع الصلب ..

فتح قناة الاتصال داخل خوذة ، للاتصال بزميله (ياسر) داخل سفينة الفضاء :

ـــ يا إلهى .. من أى مادة صنعت هذه الحجارة ؟ لم أستطع حتى إحداث خدش فيها ..

قال (ياسر) :

ـــ حاول مرَّة أخرى ..

ـــ ما نتيجة تحليلك للسائل ؟.

— إنه حامض التريك مع قليل من الماء ..

— أسرع بالعودة حتى نجرى أبحاثنا معًا ..

استند (هاشم) على حافة البئر ينتظر ، وكانت الشمس تنحدر نحو الأفق .. لقد هبطا قبيل الغروب بالأمس ، وعرفا كيف تتحوّل الصحراء من اللون الأحمر الوردى إلى اللون الأسود الدامس ..

أخذ (هاشم) يفكّر .. مِمَّ صنعت هذه الأحجار التى يستند إليها ؟..

وكم يبلغ عمرها ؟.. لابد أن حضارة أهل المريخ قد اندثرت منذ آلاف السنين ، ونظر من حوله ، كانت الكثبان الرملية تنتشر فى كل مكان ، وعندما دقق النظر وجد أن أقربها إلى البئر يتخذ شكلًا غريبًا ، يختلف عن الكثبان الرملية الأخرى ، وربما كان هذا لُغزًا آخر من ألغاز المريخ ..

لم يمرّ وقت طويل حتى عاد (ياسر) بالمركبة الزاحفة ، فابتدره (هاشم) :

— استخرج أدوات الحفر الإلكترونية من المركبة ..

تساءل (ياسر) فى دهشة :

— لماذا ؟.

— أودُّ أن أحفر فى أحد الكثبان الرملية القريبة والذى يتخذ شكلًا غريبًا ، فلابد أن فى داخله شيء ما .. أريد أن أعرف ما هو ؟. ربما يحل لنا لغز البئر ..

استمر الحفر لمدة قصيرة ، وبعدها خرج من الرمال ، ما يشبه تمثالًا باللون البنّىّ ، وعندما دققا النظر اتضح أن هذا التمثال مومياء ، قريبة من الشكل الآدمى ، ترتدى بعض الملابس الغريبة الممزقة ، إلا أنها تختلف فى طولها الفارع الذى يبلغ حوالى ثلاثة أمتار ، والجمجمة الهائلة ، ولم تتضح تفاصيل أكثر ، فقد تسبب الزمن فى تآكل المومياء بشكل واضح ، كان الاكتشاف مذهلًا ، وساد الصمت بين رائدى الفضاء ..

— هل تشبهنا هذه المخلوقات ؟

قال (هاشم) :

— ليس بالضرورة أن تشبهنا ، وإن ما اكتشفناه من الملابس والكتابة والبئر ، هى وسائل يجب أن تلجأ إليها أى مخلوقات ذكية ؛ ويمكن تفسير شكل هذه المخلوقات الغريب بما يعرف بـ (التطور المتوازى) ..

تساءل (ياسر) فى دهشة :

— التطور المتوازى !.

مثل عين الأخطبوط ، إنها تشبه عين الإنسان ، ومع هذا فالأخطبوط ليس آدميًا ، هذا ما يسمى بـ (التطور المتوازى) .. دعنا نحمل المومياء على المركبة الزاحفة ..

كانت المومياء خفيفة الوزن كأنها مصنوعة من الفلّين ، وضعاها فى حرص بالغ فوق المركبة ، واتجها إلى سفينة الفضاء القريبة من هذا المكان .. بدأ (هاشم) فى الصعود فى السُّلَّم وهو يسند المومياء على كتفه الأيسر ..

قال (هاشم) فى اهتمام :

— يجب أن نغطى المومياء بطبقة من البلاستيك قبل انطلاقنا إلى كوكب الأرض .. هل لدينا رشاش البلاستيك ؟.

أجاب (ياسر) مفكرًا :

ــ لا أظن .. وإنى أرى أن نأخذ بعض الصور للمومياء ، إذ ربما يحدث لها شيء ..

ــ حسنًا .. هناك آلة تصوير بين المعدّات فى حجرة القيادة ..

وضعا المومياء فى حرص فوق الأرضية ، وخلعا خوذتيهما ، وذهب (ياسر) للبحث عن آلة التصوير ..

أخذ (هاشم) يفكر .. إن الماس غير متوافر فى تُربة المريخ بهذه الكثرة ، وتقطيعه إلى مكعبات على شكل حجارة .. كان عملًا شاقًا ويلزم له تكنولوجيا متقدمة ، ولماذا الماس بالتحديد ؟

ولماذا الكتابة على هذه الحجارة ؟.. هل لأسباب دينية ، ربما كان هذا البئر معبدًا لأهل المريخ ؟

عاد (ياسر) ومعه آلة التصوير .. وفجأة أتت رائحة قوية من ناحية المومياء ، رائحة مادة كيماوية نفاذة ، وبدأ بخار كثيف يتصاعد من الجثة القديمة ..

هرع (هاشم) إلى جانب الحجرة ، حيث يحتفظون بإناء به ماء ، وأفرغ الإناء فوق المومياء ، وبمجرد ملامستها للماء انفجرت قنبلة صغيرة ولكن بصوت مكتوم ، ثم أصبحت رمادًا ، وازدادت الرائحة الكيماوية فى الجو ..

تمالك (هاشم) فوق مقعد قريب ، وهو يشعر بدوار وبغثيان ..

قال (ياسر) متعجبًا :

ــ لماذا انفجرت المومياء ؟.

تمالك (هاشم) نفسه ، وقال فى همس :

ــ إنه الماء ..

ــ ولكن كان فى البئر ماء مختلطا مع حامض التتريك ..

ــ أجل .. ولكن ألم أخبرك أن عين الأخطبوط تشبه عين الإنسان ؟.

ــ ولكن البئر ...

قاطعه (هاشم) مؤكدًا :

ــ لم يكن هذا بئرًا ، ولكنه فرن لاحراق جثث الموتى من أهل المريخ .. وماذا يكون غير هذا ؟.. فليست هناك نار على سطح المريخ ، وعلى المياه أن تذيب الجثة تمامًا ، فقد تم تغطية المومياء بمادة كيماوية ، بحيث تتحلل تمامًا عند ملامستها للماء ..

ــ ولكن هذه الجثة كانت بعيدة عن البئر ..

ــ ربما لم يتوافر لهم الوقت لإحراقها فى الفرن ..

عاد (ياسر) يتساءل :

— ولماذا كتبوا على حجارة البئر ؟

— إنها نوع من التعاويذ من أجل الموتى ، مثل كتاب (الموت عند القدماء المصريين) ..

— ولكن لماذا بنوا البئر من حجارة من الماس؟

تمهل (هاشم) قليلًا ، ثم قال فى صوت جاد :

— إن الماس أقوى مادة معروفة للإنسان أو لأهل المريخ ، ولا يمكن للزمن أن ينال منها بسهولة .. إنها كالنصب التذكارى الخالد للراحلين الأعزاء ..

* * *

روايات مصرية للجيب

سلسلة نوقا للخيال العلمى

احترس
إننا نراقب أحلامك

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

فى الردهة الفاخرة ، قال الزائر مجاملًا :

ـــ شكرًا من أجل العشاء ، إن زوجتك سيدة فاضلة ..

ابتسم الدكتور (ص) ..

وبمجرد دخولهما من الباب المكسو بالمخمل ، أضيئت الأنوار الخافتة ، ومن مكان مجهول امتلأت الغرفة برائحة البخور المعطر ، ونغمات الموسيقى الحالمة ..

نظر الزائر حوله فى دهشة ، وعاد الدكتور (ص) يبتسم ولكن بشىء من السخرية :

ـــ أرى أنك تبحث عن مكتب أو منضدة ، إن الرجال فى مثل مركزى لا يحتاجون إلى أى منهما ..

لم يكن هناك حتى مقاعد ، فقط مجموعة من الأرائك الفاخرة فى أرجاء الغرفة الواسعة ، وعدد من الوسائد الضخمة الملوّنة التى تتناثر على الأرضية المغطّاة بالسجاد الفاخر ، وعلى الجدران ديكور من الفن الشرقى ..

ابتسم الزائر ، وهو يتساءل :

ـــ تبدو لى كإحدى غرف قصور ألف ليلة !

ضحك الدكتور (ص) :

ـــ يُروق لى أن يكون مكتبى الخاص محاطًا بهذه الديكورات .. أعترف أننى خيالى إلى حدٍّ ما ..

أومأ الزائر متعجّبًا ، وقال وهو يرقد على إحدى الأرائك المريحة مقلدا الدكتور (ص) :

ـــ ويبدو لى أنك تحب أن تعيش بالقرب من مكان عملك ..

ـــ إن وظيفتى ككبير مراقبى الأحلام يتطلب عملًا وجهدًا متواصلين .. نحن نراقب أحلامهم ليل نهار .. انظر ..

ضغط الدكتور (ص) على زرٍّ فى الأريكة التى يرقد عليها ، فانساب من السقف ذراع معدنى طويل ، نزل ببطء شديد ، بلونه الرمادى الداكن ، كان ينتهى بجهاز بلّورى مثلث .. لمس الجزء الأعلى البارز منه ، فتحرك الجدار المواجه لهما ، وكشف عن شاشة هائلة متألقة ..

اتخذ الدكتور (ص) وضعًا مريحًا فوق الأريكة ، وقال بلهجة آمرة فى الميكروفون الدقيق المثبت بالمسند :

ـــ أوصلنى بأحلام المجرم (ب ٧٢٣) .

بدأت موجات من الضوء تتداخل فوق الشاشة .. ألوان الطيف كلها تختلط فى دوّامة سريعة ، ثم تبدأ بعض الألوان فى الانطلاق بحركة دائرية حول الشاشة الهائلة ، وتتخذ بعد ذلك شكل نافورة من الألوان المتألقة ، سرعان ما تخفت تدريجيًا ..

ظهرت عدة أشكال رمادية بوسط الشاشة ، غامضة فى بادئ الأمر ، ثم بدأت الخيالات فى الوضوح ، بعضها أشخاص ، رجال ونساء وأطفال ، والبعض الآخر أشياء كالظلال ، مقاعد ، وطرق ، ومنازل ، وسيارات ، وجبال ..

كان الزائر يحدّق فى الشاشة فى ذُهول ، وأخيرًا استطاع أن يتحدث :

ـــ هل هذه أحلام ؟.

قال الدكتور (ص) وهو يتابع الأحداث فوق الشاشة باهتمام بالغ :

ـــ إنها أحلام المجرم (ب ٧٢٣) كانت أسرارنا تنقل إليه ، ولم نضبطه أبدًا متلبّسًا .. أودُّ أن أعرف الخائن الذى يحذره فى الوقت المناسب .. انظر ، انظر ، لقد بدأت الصور تتضح ..

تساءل الزائر فى تعجب :

— ولكن أين الحالم ؟.

أجابه بصوت يخلو من التعبير :

— من النادر أن ترى الحالم ، فإننا نرى من خلال عينيه .. انظر ، العجوز التى بدأت معالمها تتضح ، والطفل فى الطرف الأيمن من الشاشة ، والبحيرة المتلاطمة الأمواج التى تفصل بينهما .. إنه يحلم بطفولته ، الوغد يحلم بطفولته !.

ذابت أشباح العجوز والطفل والبحيرة ، فى الخلفية الملونة الدائمة التغيُّر ، وتبدَّل المنظر ببطء ، فظهر حمل صغير ناصع البياض يسير بين مروج خضر ، سرعان ما تكوَّنت فوق الشاشة .. وفجأة فتح فمه فصدر منه صوت رضيع آدمى !!

بوغت الزائر تمامًا ، فقد كان هذا أول صوت يصدر عن شاشة الأحلام ، وسأل فى لهفة وهو ينظر إلى الدكتور (ص) :

— أتعنى أنه يمكنك أن تسمع الأحلام أيضًا ؟.

قهقهة الدكتور (ص) بصوت مرتفع :

— بالطبع يا صديقى ، فإن لدينا علماء إلكترونيات أكفاء ، وهم يعرفون عملهم جيِّدًا ..

قال الزائر ، وقد غاب عنه المعنى :

— وكيف تراقبون أحلام (ب ٧٢٣) ؟.

تألَّقت العينان الضيقتان القاسيتان :

— دبرنا له حادث سيارة ، وفى المستشفى استطعنا أن نجرى له عملية جراحية ، زرعنا بها فوق الغدة داخل مخه جهازًا دقيقًا جدًا أقل من رأس الدبوس .. معجزة علمية .. وباستخدام أشعة الليزر ينقل إلينا أحلامه ، من خلال محطات تقوية دقيقة مثبتة داخل منزله ، وفى كل الأماكن التى يحتمل أن ينام بها ..

قال الزائر ، وقد سيطر على نبرة صوته :

— وكيف اخترعتم آلة الأحلام هذه ؟.

تريث الدكتور (ص) برهة ، ثم قال فى بطء :

— لا شك أنك تعلم أن الأفكار تنشأ بفعل نبضات كهربية فى المخ ، وهذه بدورها تحدث مجالات كهرومغناطيسية ضعيفة ، وكانت نظرية العلماء تقول بأنه يمكن بناء نماذج من الأفكار المرئية والمسموعة من هذه المجالات ، ولكن للأسف لم نوفَّق فى هذا العمل ، وبالمصادفة وجدنا أنه يمكن استخدام نفس الجهاز بنجاح مع الأحلام ..

هتف الزائر فى إعجاب :

— شىء رائع ..

وأخذ يفكر فى أنه سيخبر أبناءه بكل ما رآه ، إلا أنه تردَّد قليلًا ، لأنه تذكر منعهم له من زيارة الدكتور (ص) صديق الدراسة ، قالوا له فى إصرار :

— اذهب إلى المتاحف ، ومعارض الفن ، وحديقة الحيوان ، فهى أماكن تستحق المشاهدة ..

لقد زاروا العاصمة من قبل مرارًا ، أما هو فكانت هذه زيارته الأولى ..

أجابهم فى حَيْرة :

ــ إنه رفيق دراسة ، وأنا مواطن محترم ، فلن يسبب لى الدكتور (ص) أيَّة متاعب ؟!

بدأت الصور والألوان تتداخل فوق الشاشة مرَّة أخرى ، وظهرت أشباح طويلة تتواثب ، وبدت وجوهها كالوحوش ، وأيديها كالأفاعى ، وملأت الغرفة بصرخاتها المروِّعة ..

شعر الزائر بشفقة على (ب ٧٢٣) ، دون أن يعلم ما هى جريمته .. مسكين ، فهو فى هذه اللحظات يُعانى من كابوس مرعب ..

ذاب المشهد فى نماذج متداخلة ، وانخفض الصراخ ليصبح كالفحيح ، وعلى الشاشة وضحت صورة غرفة ضيِّقة فيها عدد من النساء والرجال يجلسون فوق الأرض ، وكانت وجوههم المرهقة فى اتجاه الدكتور (ص) والزائر ..

قال الدكتور (ص) فى همس :

ــ إنه يحلم باجتماع ما ، وأظن أنه على وشك إلقاء خطبة .. إن هذا الحدث بالغ الأهمية ، فهذا الحلم يراقبه أشخاص آخرون فى خمس غرف أخرى فوق الشاشات ، أرجو أن نستطيع تعرُّف كل من حضر هذا الاجتماع ، ولكن هناك بالطبع عدة صعوبات تواجهنا ، ففى بعض الأحيان تتداخل الوجوه فى الحلم بحيث يصعب تعرُّفها ..

قال الزائر فى اهتمام :

ــ ولكن الأحلام قد تخدع أحيانًا .. أليس هناك احتمال أن يحلم (ب ٧٢٣) بأحد أصدقائه أو أقربائه فى هذه الاجتماعات ، دون أن يكونوا قد حضروا الاجتماع فى الحقيقة ؟.

ردَّ عليه الدكتور (ص) فى سُخرية :

ــ إننا نحاول أن نكون عادلين ، ولكنك تعرف المثل القائل : « من الأفضل أن تعاقب عشرة أشخاص أبرياء ، على أن يفلت شخص واحد مذنب من العقاب » .. إننا لا نريد أن نقبض عليه حتى يدلنا على كل شركائه ..

همس الزائر كأنما يحدث نفسه :

ــ هذا صحيح ، ففى هذا العصر ــ منتصف القرن الحادى والعشرين ــ كل إنسان مذنب إلى أن يثبت براءته :

أشار إليه الدكتور (ص) أن يصمت ويراقب الشاشة ، كان صوت (ب ٧٢٣) يزداد قوة ، ولكن الكلمات لم تكن واضحة تماما ، وكأنها تصدر من جهاز تسجيل به عطب ، واستطاع الزائر أن يتبيَّن بعض الكلمات :

ــ اختاروا السعادة والحرية ، إرادة الإنسان ، والحياة ، والتضحية ، والدكتور (ص) ..

وكانت الكلمتان الأخيرتان واضحتين تماما ..

قهقه الدكتور (ص) فى وحشية ، وهو يعتدل فى جلسته على الأريكة :

ــ إننى وراءه حتى فى أحلامه !.

ثم استدار إلى الزائر ، وقال :

ــ أعتقد أنك مللت هذه الصور ، هل أطفئ الشاشة ، فكل هذه الأحداث تسجل فى كل غرف المراقبة ، ويمكننى رؤيتها فى أى وقت ..

وضع يده فوق الجهاز البلّورى المثلث ..

هتف الزائر محتجًا :

ــ كلَّا .. كلَّا .. إن الأمر ممتع للغاية ..

فرفع الدكتور (ص) يده من فوق الجهاز ..

— هل تفضل أن تقوم بزيارة بقية أجزاء مؤسسة (الفكر والحرية) ؟ فنحن نعمل على مدار الساعة .. ألا تودُّ تعرُّف مختبر الشخصية ، حيث نقسم الأشخاص بحسب عدد الذرّات داخل الكروموزومات فى أجسادهم ، فيكفى أن تعطى الخبير جزءًا من ظفرك أو شعرة من رأسك ، أى شىء من جسمك يمكن أن يحتوى على خليّة كاملة ، وخلال دقائق سيخبرك باسمك وعنوانك وعمرك وكل البيانات الشخصية الأخرى .. انظر ..

تغيَّر المنظر فوق الشاشة .. وظهرت مروج أخذت تموج بالألوان حتى ساد اللون الأخضر ، وبدت فتاة تسير وحيدة فى بطء .. كانت ترتدى ملابس عتيقة الطراز ، وشعرها الأسود يتطاير فى الهواء ، ثم استدارت لتواجه الزائر والدكتور (ص) .. كانت فاتنة ، ووجهها مستديرًا ، ينبئ عن الحب الأول ، وعيناها سوداوين تشعان ذكاء ، وابتسامتها مفعمة بالمودَّة والألفة ..

اعتدل الدكتور (ص) فى جلسته ، وأخذ يراقب الشاشة باهتمام بالغ .. ثم همس للزائر :

— نحن نعرف أن المجرم (ب ٧٢٣) لم تكن له حبيبة لمدة طويلة ، على الأقل حتى بدأنا مراقبته ..

تذكر الزائر زوجته التى تُوفِّيت منذ زمن طويل وأولادهما ما زالوا صغارًا ، هل جاءه طيفها فى أحلامه ؟.. إنه لا يتذكر جيِّدًا أحلامه ، ربما لأنه ينهض مسرعًا من فراشه ويبدأ عمله الشاق ..

عاد الزائر يراقب الشاشة فى اهتمام ، ظهر شبح رمادى بجانب المرأة ، سرعان ما اتضحت معالمه .. شاب يرتدى ملابس فضفاضة من نفس الطراز العتيق ، وكان يمسك بيد الفتاة ..

قال الدكتور (ص) بدهشة :

— هذا حلم نادر الحدوث ، حيث يراقب الحالم نفسه عندما كان شابًا .. إنه حلم صادق ويعطينا معلومات دقيقة عن الشخص المراقب .. لقد عرفت الفتاة الآن ، إنها حبيبة المجرم (ب ٧٢٣) عندما كان شابًا ..

قال الدكتور (ص) الكلمات الأخيرة بازدراء ، ثم أكمل :

— لقد أعدمت الفتاة ..

تعانق الشابان فى صمت وبحركات بطيئة ، كممثلى البانتوميم .. كان المنظر حقيقيًا ، وكان من الصعب على الزائر أن يفكر أن ما يراه مجرَّد صور من عقل يحلم ، وعندما عرف أن الفتاة قد أعدمت ، أضاف هذا جوًّا غريبًا على المنظر فوق الشاشة .. لقد سلَّموها لطيور الموت ، فهل عاملوا جسدها بعد الموت بالاحترام الواجب ؟.

صرخ الدكتور (ص) فجأة :

— أعرفك يا (ل ٤١٤) .. ولكنك ميته ، ميتة ..

استدارت فإذا بها امرأة أخرى أكثر بياضًا ، وذات شعر أشقر قصير ، وترتدى وشاحًا أحمر فوق رقبتها ، وعيناها الخضراوان تُومضان فى غموض ، كانت ملابسها من أحدث طراز ..

شهق الدكتور (ص) ، ونهض من فوق الأريكة بسرعة ، وانتصب واقفًا وقد اضطرب توازنه ، وامتقع وجهه ..

ظهرت قطرات من العرق على جبهة الزائر ، وتقلصت حنجرته ، وبدا وكأنه غير قادر على التنفس ..

ارتجفت يداه ، واعتدل فى جلسته بعصبية .. وكان عليه أن يقرِّر : هل من الأفضل أن يتكلم .. أم يلتزم الصمت ؟. هل يستمر فى مراقبة الشاشة .. أو يحاول الهرب من المكان بسرعة ؟. لم يستطع أن يتخذ قراره ،

فقد أصابه المنظر بالشلل التام ، وفى هذه اللحظات العصيبة تحوّل الدكتور (ص) من رفيق دراسة إلى كبير مراقبى الأحلام ..

فوق الشاشة ، اقتربت المرأة الشقراء من (ب ٧٢٣) ، وهمست بصوت واضح :

ــ أنا أحبك أيضًا .. لست (ل ٤١٤) .. لقد ماتت ، أنا (ف ٦٧٢١) ..

أجابها (ب ٧٢٣) فى حنان غريب :

ــ إن من يحبنى يموت ، حتى الذى يعرفنى نهايته محتومة ..

قالت فى حماس :

ــ كلنا سيموت يومًا ما ، فلماذا لا نموت الآن ، لنجلب الحرية للآخرين ؟

دفن الدكتور (ص) وجهه بين يديه ، وقال بصوت مُفعم بالحُزن ، ووجهه يختقن بالدماء :

ــ إنها زوجتى ، زوجتى الخائنة ..

شعر الزائر بأنه يجب أن يتكلم ، بعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحدّ ،

فقد كان يعلم منذ ظهورها على الشاشة بأنها زوجة الدكتور (ص) فقد قابلها مساء اليوم ..

استدار إلى الدكتور (ص) ، وقال :

ــ فى الأمر خُدعة .. يبدو أن (ب ٧٢٣) قد حصل على صورة زوجتك ، ربما من صحيفة أو مجلة ما ، وكان يعلم أن أحلامه مراقبة ، و ...

قاطعه الدكتور (ص) فى حدّة :

ــ اصمت ..

شعر الزائر بأنه قد أخطأ عندما تكلم ، ولم يحوّل الدكتور (ص) نظره عن الشاشة ، ولم يستطع الزائر أن يتابع المشاهد المتلاحقة ، فقد رأى ما فيه الكفاية ، وأنصت على الرغم منه إلى الحديث فوق الشاشة . حديث الحب ، والشوق ، والألم والعذاب ، ثم ساد الصمت ، فنظر الزائر إلى الشاشة من خلال عينين مجهدتين .. لقد أظلمت تمامًا ، وعاد الجدار إلى مكانه ..

جلس الزائر يُحدِّقُ فى الفراغ مُقطّب الجبين ، يحاول أن يحلل الخوف المروّع ..

قال الدكتور (ص) فى برود وبطء :

ــ سأتخلص منهم جميعًا ، بمن فيهم زوجتى الخائنة ..

نظر إليه الزائر فى ذُهول وهو يرتجف ، وأكمل الدكتور (ص) وهو ينظر إلى الزائر فى تحدٍّ :

ــ وأنت أيضًا ، فقد رأيت أكثر مما ينبغى ، وعرفت ما لا يجب أن تعرفه ..

قال الزائر فى رُعب :

ــ يجب أن تدرك يا دكتور (ص) أن هذه خُدعة واضحة ، القصد منها الإساءة إليك ، فالأحلام عبارة عن تنفيس للعواطف المتضاربة داخل العقل الباطن ، وبصورة رمزية ..

بقى الدكتور (ص) صامتًا ، وأكمل الزائر بصوت مُفْعَم بالخوف :
— لقد أخبرتنى بنفسك أن حلم (ب ٧٢٣) ، يراقب من عدَّة غرف أخرى ، ويسجل فى نفس الوقت ، إذن هناك العديد من المراقبين يعرفون — بجانبى — هذا السِّر !.
أطرق الدكتور (ص) لدقائق ، ثم رفع رأسه ، وقال دون أن ينظر إلى عينى الزائر : اذهب ..
وأمسك بالجهاز البلّورى المثلث وضغط على أحد الأزرار ، فانشق الجدار عن مصعد صغير من معدن رمادى ..
— يُوصلك هذا المصعد إلى باب خارجى ليست عليه حراسة ..
قال الزائر فى حزن حقيقى :
— وداعًا يا صديقى .. أعتقد أننى لن أراك أبدًا .
قال الدكتور (ص) فى صدق : وداعًا ..
كانت ثَمَّة دموع فى عينى الزائر وهو يتجه بخطوات سريعة إلى المصعد ، وبمجرد دخوله أغلق الباب آليًا ، وهبط به إلى الطابق السفلى ..
لم يصدق الزائر أنه أصبح حرًّا ، أخذ نفسًا عميقًا فى الهواء الطلق المنعش ، وأول سؤال خطر بذهنه :
— كم من أحلام الناس مراقبة ؟.
وتوالت الأسئلة :
— هل يمكن أن تمنع الأحلام ؟.
لم يجد إجابات مُقنعة للأسئلة التى أخذت تتلاحق فى ذهنه كألسنة من اللهب ، أحس بأنه منهوك القوى ، وأن الزمن قد أبطأ فجأة ..
نظر إلى السماء ، وروعة هذا الامتداد اللامحدود ، وخُيِّل إليه أن النجوم أصبحت شاحبة ، وتكاد تختفى من الفضاء ، على حين ازدادت حُلكة الليل ، وأصبحت كالعباءة السوداء القاتمة عندما شملته وهو يمتزج بها ..

المؤلف

رءوف وصفى

سلسلة نوفا للخيال العلمى
قصص من عالم الغد

★★★★

غزو .. من عالم آخر

هذا الكتاب .. يصحبك فى رحلة إلى عالم الغد .. سوف تلتقى بالروبوتات وسفن الفضاء وكائنات الكواكب الأخرى ..

مغامرات فى الفضاء ..

وفى عمق الكون ..

وفى المستقبل .. كمبيوترات متطورة تتحدث مع الناس وتناقشهم ..

وآلات زمن تشق طريقها عبر نفق الزمن إلى الماضى .. والمستقبل ..

ولكن تبقى العواطف البشرية النبيلة ..

كالحب والصداقة والوفاء ..

فى هذا الكتاب

	الصفحة
• غزو .. من عالم آخر	٥
• قلب من الماس	٢٣
• الحياة .. من جديد	٣٥
• الشهاب	٤٥
• الحب .. الذى أنقذ العالم	٥١
• رعب .. من الفضاء	٦١
• الكائنات الرهيبة	٨١
• العودة .. من المستقبل	٨٩
• بعد مليون عام	١٠٧
• نهاية الرحلة	١١٩
• الاعتراف الأخير	١٢٩
• الرحيل إلى كوكب غامض	١٣٩
• عين الأخطبوط	١٥٧
• احترس .. إننا نراقب أحلامك	١٦٥

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقى بالفجالة - القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥

الثمن فى مصر
١٢٥
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم